ثلاثة شتاءات

مجموعة قصصية

الطبعة الأولى
2020م- 1442هـ

ديوان العرب
للنشر و التوزيع

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: ثلاثة شتاءات

اســـم المـؤلف: حيدر علي الجبوري

التصنيف الأدبي: مجموعة قصصية

رقـم الإيـــــداع: 15534 / 2020

الترقيـــم الدولي: 6 - 22 - 6830 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــــم الطبـعـة: الطبعة الأولى

المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

ثلاثة شتاءات

مجموعة قصصية

حيدر علي الجبوري

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

حقوق حلمك

ورودُ حبيبتي

قد تراكم كلّ شيء هناك، وبدا الأمر كاللغز تحاول الذاكرة كلّ مرةٍ فكّه دون جدوى، وعلى امتداد عقدين من العمر، وفوقهما رشة أعوام قليلة. ومما عرفته؛ إن تلك المقطوعة كانت لشوبان، كنت أستمعُ لها بمقهى في الجامعة، وأضعُ صنارتي لاصطياد فتاةٍ جعلتها تعتاد فتأتي إلى هنا منذ ثلاثة أيام برسالةٍ غير مباشرة إلى صديقي، قلت له: كلّ يومٍ الساعة العاشرة. ثم شئتُ بذلك اليوم إخراجها من مياه انتظاراتها، فلعلَّ مللاً قد يصيبها وتترك صيدي، غير أنّ أمر إفلاتها صار ضرورة بعدما شاهدت ما لم تشاهد من قبل عيني؛ وحيدة عند طاولة فوقها كتاب وورودات ملونة. حققتُ مع نفسي كثيراً، وراجعت ملفات الذاكرة بحثاً عن وجه تلك الفتاة، ولا يعقل وأنا دليل الجامعة عبر أربعة أعوام وخامسة أنفقتها من أجل السعادة أن أرشف ذلك الوجه الجميل. وإنّ من الاكتشافات: أجد نفسي البريء الذي يريد قول الحقيقة، فأرسلت لها أول بسمة صادقة أنتجتها في مصنع بسماتي الكاذبة إلى فتيات قبلها، وردّت إلي بإحسانٍ كان بدايتي للتوبة، واعتكفتُ بمحاربها، ثم رحلت وتركت على طاولتها الوردات الجميلات، وبعض أوراق لم أجد فيهن لو حرفاً من خط يدها، أو أي إشارة لمكان دراستها، أخذتهن مع الورد، واتجهتُ لوجهة ذهابها التي ابتلعتها وأضاعت أثرها، وكأنها لم تطأ

أي وجهة. حدّثتُ كثيرات من الطالبات عنها، وسألتهن إن كنَّ يعرفنها، أو يدلُلْنَني لخيط في تعقبها. لم ينفع الوصف في تعرفهن حتى استعنت برسامٍ كان يعرض أعماله في معرض الرسم بنادي الكلية، لكنّ أحداً لم يُشِر لي بمعرفة لها، ويزيدون بعدما يرون الرسم اقتراحاً بأن أعود للمكان الذي رأيتها، لعلّ هناك من يعرفها.

قد استفقتُ أخيراً، قالت لي صديقتي: لكنّ الوقت قد تأخر للاستيقاظ، ونهاية الدراسة بدا شاطئها يلوح، واقترب موعد النزول للمرفأ وترك ما اتخذته مرحاً. لم أستوعب ما قالته، وأجبتها: لم أجعل لنفسي بيومٍ ما نقطة بداية، وإن اضطررت، ستكون البداية من هنا، سيكون بحث دراستي عن فتاةٍ رآها الناس مرة واحدة. وبرغم إني لم أهضم ضحكتها جيداً، لكن قولها تعلق بأطراف ذاكرتي، وإنّ الغريب – كما قالت صديقتي – الغريب بكلية الآداب، إن من يدخلونها يبدون مراهقين، لكنهم في الآخر يكونون حكماء. ستكون بدايتي هنا، لعلّ مصادفة كتلك تأتي مرة أخرى وأحاول تصحيح الخطأ الزمني الذي وقع، ثم أحاول ترتيب أوراق أيامي التي أنّقتُها بأول عامٍ في دراستي العليا على عجرفة الأساتذة، وكأنّنا سنكون حكماء لمجراتٍ وأكوانٍ بعوالم أخرى، وليس مجرد طلبة عليهم أن يتأثروا بما قيل، ويعيدوا صياغة ما قرأوه بأطروحات جامدة. كنت أقرأ وأشرب الشاي، وأمضي أغلب وقتي في المقهى الذي رأيتها فيه، حتى تحولتُ من رائد له إلى صديق مقرب لصاحب المقهى، وللنادلين، ولم يعد ما يمنعني حكاية

سبب إنبات شجرة تواجدي هنا، لكنّهم بأيّ حال كانوا يعتبرون تواجدي قصة من قصصِ ما حصل ويحصل، فأنا لست الوحيد الذي شهدوا قصة حبه، والمكان كما قال لي صاحب المقهى ذات ليلة ممطرة، كنت أعدُّ فيها الاحتفال بمرور عامين على ضحكةٍ ولدت هنا، واقترحَ هو لي أن نمضي الليلة سوية، فأشاهد المقعد الذي جلست بأي وقت أشاء، ولعلَّ ذلك يساعدني بالخروج مما أنا فيه، إلى شي آخر أكون فيه أفضل. قال لي بأنه شاهد الكثير من الحبِّ، ورأى دموعاً كثيرة، وبداياتٍ ونهاياتٍ وجنوناً كما جنوني، لكن الشيء الجيد في الحبِّ أنّه يُبقي الإنسان في السن الذي وقعت فيه أول حادثة بحياته، ولن يتمكن من مغادرة سنه ذاك، حتى وإن تدخلت المائة عام من عمره الذي عاشه. كان يعاملني على أنني مصابٌ، والسبيل الوحيد لي هو مواكبته معي بما أشعر، وكلّ الفروض التي كانت تناقض ما أكون عليه، هي مجرد مضيعة للوقت، وتزيد من إصراري بالإيمان بأنّ التي رأيتها، سأراها ثانية. كنت أستمع لأول مرة لأغنية فرنسية، أرسلت بي حيث المكان الذي كانت، ثم جعلتني أجلس في مقعدي، وأستغرق تحت المطر بالنظر إليها، كنت أشاهدها، وتستمع معي لأغنية (لو لم تكن موجوداً) لـــ"جوي داسين"، وبقينا معاً لما بعد منتصف الليل دون أن نعبأ للمطر الذي أغرق باحة المقهى، وملأ الطاولات والكراسي، وبدت شلالات من خصلات شعرها تمد جسدها بغيث لم يكن بيوم إن حصل. وعبر تلك الليلة، صرت ممتناً لصديقي الستيني، الذي اكتفى بأن يتذوق

العشق بقصةٍ مرَّ بها ولم تفلح، وقدرت له حياته أن يرعى مكان عشق تزاحمت فيه الأرواح والذكريات والدموع والآمال. صرت ممتناً له جداً؛ لكرمه بليلةٍ لكم رعاني فيها، وأهداني شريط أغاني "داسين"، بعدما تأكد مني بأني سأبقى أستمع لها كأيامه التي كانت مليئة بالحبّ، فطوى برحيله واحدة من أجمل أيامي، مات قبل يوم من إعطائي ورقة كتب بها مقولته الخالدة: "ما لا يتنازل عنه الرجال، مراهقتهم الأزلية، فهي الشيء الوحيد الذي يرافقهم حتى آخر الدرب، وهناك، في آخر الدرب سينظرون لها على أنها كانت من أجمل بطولاتهم. وأنّ العمر مهما كان، لا تفتر فيه المراهقة، وهي المنافس المزعج للفضيلة التي يدعونها. قال لي بأن الرجال يموتون متى ما انتهى شعورهم بالحبّ. وكلام كثير جميل كما وجهه المستدير، وذقنه القطني، وصوته الذي كان يشبه صوت كمان. ومنذ رحيله، لعشرة أعوام شرعت في البحث عن الحبّ درساً أحاول تعلمه ممن كنت أدرّسهم، عشرة أعوام كنت أرى كيف الحياة تتغير، كان كلّ شيء يأخذ دورته في هذه الدنيا، التفكير، وموضات الملابس والكلام، وما لم يتغير أبداً هو الحبُّ؛ فهو الوحيد الذي كان يجد لنفسه مكاناً في كل زمان، والمقهى قد اتسع لكثرة العاشقين، وبرغم اختفاء مكاني، ومكانها، وطاولتي وطاولتها، كنت كلما أدخل هنالك أجد ما يشير إلينا، وكأني أول مرة ألج بعالمٍ مليءٍ بأطياف وأزمنة، أخذت تبتعد وحلت محلها أزمنة وجدت نفسي فيها حاصلاً على شهادة الدكتوراه، وثمة مروج بيضاء أخذت تتسع مع تقدم موسم العمر

فوق رأسي، حاولت في عدة محطات من الأعوام التي رحلت أن أضع بداية جديدة، وأتخذ مع أي امرأة ألتقي معها مناسبة نسيان لما حصل، وأجعل منه ذكرى سعيدة، أو حادثة وقعت لي كما تقع لأي إنسان، لكن، وكما كانت تقول لي صديقتي _التي سجلت عني أقسى ملاحظات المرأة الملاحِظة لما يعيشه الرجل في فترة ضعفه_ قالت لي: إنّ بإمكانك التنفس من خلال أي امرأة بمجرد أن تراها، لكن لا يمكنك العيش إلا بذكرى واحدة جعلت منك شخصاً آخر.

في الحقيقة يا صديقي، لم تكن تلك الفتاة حقيقة كما ادعيت طوال زمن بعيد، فلعنة العبث بمشاعر الآخرين مكلفة جداً، وقد يضطر المرء فيها لأن يخسر أشياء كثيرة، أشياء جميلة، وأشياء مهمة لا تعوّض أبداً، كن كثيرات من أحببنك بصدق، فهل تتوقع من دموعهن أن تذهب سدى، وتُطوى آلامهن كما عبثك؟ من أحببتها هي لعنة من روح واحدة لا تدري ما حصل لها، ورحلتك كلها كانت في البحث عن النقاء، وليس البحث عن فتاة رأيتها، ولم ترها بعد، لقد أنفقت من العمر ما يجعلك أن تتعلم كيف تكتب رسالة بتلك الأوراق التي وجدتها، رسالة اعتذار لهن جميعاً، وتبعثها مع ورود حبيبتك، ولعلّ بذلك من ستسامحك... كانت ملاحظتها تلك المنفذ الوحيد الذي توغلت فيه إلى أسباب ضياعي، فقد كان بالإمكان أن أضع تلك الورود في حديقة حياتي، وأسقيها بمياه كل شيء جميل، كان بالإمكان أن أكتب بأوراقها الفارغة أصدق رسالة حبّ، وأرسلها لأي بريد

بأي مكان في العالم. كانت ملاحظة صديقتي ترياق لن يكون غيره، أو سأكون كما أنا منذ أكثر من عقدين. وهناك، في المقهى الذي وجدتها فيه، واختفت منه، اخترت ليلة كتلك التي قضيتها مع صاحب المقهى الرائع، ليلة التقت فيها كل معطيات ما آلمني، لكن غنائي لـ"داسين"، كان قد أخفى الكثير من السنين، والكثير من البحث، ومنحني الحب لأجلها بأن أدعَ ورودها التي تركتها في زمانٍ ما على طاولة في نفس المكان الأول، ثم أترك لها الفرصة بأن تأتي لتأخذهن، كانت كما هي حينما لقيتها: جميلة وكما أي جميلة بعين حبيبها، أراها تقترب، وتجلس تحت مطر ما رأيت مثيله من قبل، كنت أراها من بعيد تلتقط وردة بعد أخرى، تقلبهن وكأن أحداً احتفظ بهن لزمنٍ طويلٍ وقاسٍ، أما أنا، فقد كنت احتفظ لنفسي حق الصمت، وحق المشاهدة التي طالما كانت الأقدار تصنعها لي كعقوبة لخطأ مداه الحياة كلها، كنت أشاهدها تراقب الوقت من خلال ساعتها، وأن الرحيل قد آن أوانه وعليّ أن أودعها، إلى الأبد.

****

ثلاثة شتاءات

الشتاء الأول

تحت نخلةٍ كان ظل سعفاتها قد زخرف الأرض، رأيته واقفاً كمن ينتظر حبيبةً متأخرةً بمجيء، أو لا تجيء أبداً، ترفع أطراف معطفه الطويل رياحٌ كان بردها قد حظر التجوال على الناس. رأيته كما العمود الذي أسند جسده عليه: منسياً منذ زمن قديم، ولا يختلف عن نور مصباح ذلك العمود الذي يبعث بضيائه الشاحب في تلك الليلة، ولو أني تجاوزته، ما حصل الذي حصل، ولو أني لم أعبأ لامتداد يده التي لوّحَ إليّ بها، ما كنت لأقف، فأفهم أنه أخطأ وظن بسيارتي سيارة أجرة، فألهمني اعتذاره _الذي أطلقه بصوت مغنٍ احتكرت صوته لأذني_ ألهمني بأن ما بأيامنا هي تلك الأمور التي لا تحمل منطقاً أبداً، والصُدف هي من تقود غالباً إلى الحقيقة، وبلا عناء، لكن العناء يأتي بعد ذلك، باكتشاف الحقيقة. دعوته للركوب، إن كان ذهابه يتفق ووجهتي، فلم أنتبه لذاك التورد على وجنيه، بين افتراضات البرد، أو الخجل. كنت أشاهد جانباً من وجهه يضيء أكثر ثم يختفي قليلاً كلما تجاوزت السيارة مصباحاً من مصابيح الشارع الممتدة مع الأعمدة الكثيرة، والحقيقة؛ إنّ الحبَّ لم يكن وحي أشيائه الجميلة، بل كان اكتشاف حاولت إنكاره والسعي لإفشال تجاربه، لكنه أبى إلا أن يبرهن لي

بأنّ ما أفعله مجرد لوعة أكابد من خلالها روحي، وأنه وِلد مذ يوم رأيته والتقيته، رغم هول التناقضات، ومغادرة الخجل روحي مما ارتكبته، لكنه ذلك الجميل في كل تفصيلة من تفاصيل حياته، قفز من فوق ارتفاعات المنطق ومسافات العرف البالية، فكان ما يفعله معي حبّاً لشاب في محطة عمره الثامنة والعشرين، دون الاكتراث لو للحظة إن من سحبها في الاتجاه المعاكس للحياة، امرأة تحاول عدم الاعتراف بما يفعله، لكن رغبته قد مزقت روحها لنصفين، نصفٌ أحبَّ الذهاب مع عاشق عشريني جميل، ونصفٌ كان يحاول أن يذكّرُني، بأنّ ما أفعله مجرد هوس تحمل أوزاره أعوامي الثماني والأربعون.

....

الشتاء الثاني

ثمانٍ وأربعون، أو ثمانٍ وعشرون، فبعد تجاوزي شرك التناقضات صرتُ أخفّ تفكراً بملاحظات الغير، ولكم أحلم بأن يكون العمر كذاك الشتاء، الشتاء الأول وأنا أسحبها نحوي، وأمحو بممحاة عشقي سنيناً زائدة عن الحاجة، ولأنها لم تكُ تريد الاعتراف بأن ما أفعله هو تنافر أزمنة، فأحاول اكتشاف نظرية جديدة في الحبّ، تلتقي عندها الاختلافات. فأغضب، وأزعل، وأصمت لأيام ثم أجدني منفجراً عندها وأرغب بالبكاء لما أضعته بدونها من أزمنة بزعلي وصمتي. فكانت تراني أحنُّ وأشتهي أن أعيد

مشهداً علق بذاكرتي وذاكرتها، مشهد قرب ميلاده الأول، حين توهمت بسيارة كانت قادمة نحوي، فأومأتُ لها ظناً بأنها سيارة أجرة، فوجدت أجمل سائق فيها، وأجمل أجرة سأدفعها ممتناً لو كان ما تبقى من حياة، ولأنها الصدفة التي وِلد فيها حبٌّ طالما أفزعتني هي بأنه مضيعة لجميل أعوامي، وأن حبّها لي ستثبته الأيام والرؤى، وكلّ ادعاءاتها في أن أكون سعيداً بدونها، وعليّ الالتحاق بسربي الذي أتيت منه، لأننا طيور لا تقع على إشكالها. ولأنني ذلك المعتوه الذي أحبّ في غضبه تبديد ما لم يتبدد، وتكسير كل لحظة أمل بقيت على قيد الحبّ، ففوّت وأضعت وبددت يوم إطفاء شمعة حبنا الأولى، وثمة ظلام يحيط مكاناً بروحي، أحاول أن أراها فيه، وليس سوى كيّة تلذع القلب متى ما أدار جهة من جهاته غاية بالعثور على شيء منها، وليت شمعة تضيء أية زاوية من زوايا وجودها، علّي أهجس نوراً فيها، أو حتى ناراً تحرق أرعناً لم يدرك أي جرح غرز خنجره في قلب من قالت بحبها، فمضى الشتاء، دون أن أدري بأنه مضى، وكلّ ليلة فيه أخادع الرّوح في طرق باب من يدها، وكالطفل أركض نحو الباب، حتى أصبت بهوس طرقات كلّ باب، وهوس صوت كلّ امرأة أظنه صوتها، وهوس في كل من أشاهدها تقود، فأومئ لها علّها هي من تكون.

....

الشتاء الثالث

حقّه وأنا المُلامة. تقول لنفسها، وأكاد أتحسس لظى ذاك الصغير، الصغير على الهوى وعليّ، وليته يفهم أن صدودي عنه سيعلمه كيف يحافظ على من ستبعثها الأقدار إليه بطريق المصادفة الجميلة، ثم يحين وقت طي ذكري من حياته، وقد يضحك على نفسه ساخراً بعد مُضي الأزمنة ويقول: يا لحماقتي! لقد أحببت أغنية قديمة كانت تطرب أسماع زمانها. لكن ما يؤذيني ذنبه الذي استقر بداخله قاضياً بمحكمة ستجور عليه بحكمها، فتفاصيل ذلك المتهور أعرفها أكثر مما يعرف نفسه، وأدري به الآن لا يرى حتى يديه بين عتمة حزنه، وليتني أترافع عنه، أقنع خصمه بأنّ في الحبّ يختفي كلّ منطق. وكلّ صراخه في وجهي هو ترجمة حرفية لحبٍّ حقيقي، وفي الحبّ الحقيقي يجوز الصراخ، ويجوز الجنون والتهور والانفعال. وتكفي عليه أشهر قضاها موقوفاً بزنزانة عذاباته، وللأمانة؛ فأني لا أختلف عنه شوقاً، وبممحاة عشقه محوت سنيناً فائضة عن الحاجة، ودنو الشتاء الثالث من روحي يبعث لي رسائلاً بإنهاء شراكة العذابات والتوقف عن الكبرياء والتهرب. وكأنها على موعدٍ معه، حينما أعادت بذاكرتها لقاءً أتت به الصدفة الجميلة، فكانت الدروب التي تسير بسيارتها تحمل روح ذلك اليوم، وذلك المساء، حينما فرض البرد أحكامه على الناس فمنعهم من التجوال. رأى سيارة تتقدم نحوه ببطيء صرّح له بأنّ من تقودها امرأة ستحتفل معه الليلة

بعيد ميلاد حبٍّ قد ولِد قبل ثلاثة شتاءات. رآها تبتعد عنه، ورأته منكسراً قد نسي أنّ مكانه الذي كان واقفاً فيه أول مرة، كان هناك على مبعدة أمتار، تحت نخلة تزخرف بظل سعفها الأرض، توقفت هذه المرة هي عنده.

****

كيف يعيش الضائعون

في ذلك المكان، قادتني ضحكتكِ المجنونة نحو وجهكِ كي أراه، فكنت أقنع نفسي بأنّ من أراها هي ليست أنت، بل شيء من امرأة تقتل وقتها بالضياع مع التائهين، ولعلها الصدمة، ثم التساؤل بالذي جاء بك إلى هنا، ففي الأمس كنا نتحدث في الفلسفة، وعن فرويد، والأدب العربي والحداثة. رأيتك وسمعت قرع كأسك بكأس رجل متعرقٍ سعيد تأكل عيناه ما بان من جسدكِ. فمَا الذي حصل؟ الأمس لم يكُ بالبعيد، وتواجدي هنا كان من أجل ما اتفقنا عليه، من أجل أن نعد أنا وأنت بحثنا، "كيف يعيش الضائعون". كان اتفاقنا أن تبحثي عن نساء لم تعد لهن الرغبة في العيش كما الأخريات، واخترن أن يجدن في الليل حياةً ليست كما حياة النهار. وأنا كنت قد قلت لك بأني سأجازف وأدخل المواخير، وأرجو ألا أصادف من سيكسر برأسي زجاجة مشروبه، فأعددنا كلاً لوحده الأسئلة، وافترضنا قبل ذلك الأجوبة، والأسباب، والتبرير من أجل أن يستمر الضياع لدى مَن سنحقق معهم. ثم تركنا بعضنا على أساس أنّنا سنلتقي بعد أسبوع بنفس المكان، ودون أن نجري اتصالاً بيننا في فترة البحث، وكأننا في سباق على من سيأتي بحقيقة كيف يعيش أولئك.

أقتربُ منك علّي أؤكد لعيني خطأها، ولا أكترث لذاك الذي يود قتلي بأنظاره، وثمة لعاب يهرب من فمه نحو الطاولة التي تفصل بينه وبينك، ولأنها الأسئلة وحدها من تملك الحق في المجابهة، قلت لك وبطريقة جدّ عادية: ما الذي يجري؟ وكيف أتيت إلى هنا؟.. غير أني لم أكن أدري بأنّ الأجوبة أيضاً لها الحق وكما الأسئلة، بل وتحمل أحياناً بعض الوقاحة مهما كان نوع الأسئلة حينما قلت لي: أنا امرأة تكون كما يكون الناس، فالألوان ميزتي، ولأنك محترم، كنت كما أنت: محترمة، فغادر هذا المكان حالاً؛ لأن ركلات صديقي هذا موجعة.

****

الرحيل نحو أماكن أفضل

سيغدو كلّ شيء ضرباً من ضروب الترف، حتى التفكير بالماضي يكون خطيئةً، حينما يبدأ باجترار الذكريات واللوك بضحكاته، قال لي بأنه وجد الله هناك؛ فالسماء كالبحر، يلوذ إليهما الضائعون بالأرض. ثم ترك بسمة هادئة على شفتيه كانت كرسالة بأن اطمئن إذا ما بقيت هنا، أو هي كدعوة لي، فالمكان يتسع كلما كثر القادمون، وكلما اشتد بؤس الإنسانية. كان الموت منقذاً بطلاً يختصر كثيراً من التفاصيل. وهو من أنهى حياة زوجتي حينما جاء مُرسَلاً بقذيفة اخترقت سقف المنزل وقطع بذلك سلسلة همومها فيما تعد من غداء، فالحصار على المدينة أجاز فقط للقذائف والصواريخ أن تدخل، وأجاز لتلك الصواريخ أن تحمل معها سلالاً كثيرة من الموت والخوف، والنهايات بكلّ أنواعها. فصرنا بعد ذلك اثنين؛ أنا الذي لم يعد يفكر في كلّ شيء، وولدي الذي أتى لي بفكرته التي حكتها لهم يوماً معلمة القراءة عن هجرة الطيور، تلك التي تبحث دوماً عن أماكن أفضل كي تعيش. قال لي بأنها لا تسافر مترفة، بل إنها تبحث عن الطمأنينة والعيش في أمان. ثم رأيت انكساره حينما داهمته خاطرة، بأننا نحن بنو البشر لا نملك أجنحة كي نطير، فكدت أنفجر بوجهه كي أخبره بأن بني البشر كلّ

شيء بإمكانهم أن يفعلوا، وأفضل ما يمكنهم بذلك هو القتل، إننا نبرع بالقتل، وحلفاء مع الموت على بعضنا.

الديك فكرة كيف نطير؟ سألته لأمنح نفسي الإصغاء أكثر مما أريد أن أقوله، ولكي أشاهد وجهه المستدير وهو يحاول البحث عن حلول فيسبق في الهم زمانه ويغادر مرغماً أحلامه الصغيرة الملونة.

سنركض يا أبي، ونستمر بالركض فلا يقدر أحد أن يمسكنا، لا تقلق بشأني، فأنا أسرع أصدقائي حينما كنا نتسابق في الجري أيام كانوا في شارعنا...

كان هو الأسرع بالفعل، الأسرع مني، بعدما نجحنا من العبور ليلاً وكصديقين متجهين نحو أماكن أفضل، كتلك الطيور التي حكاها لي، وكنت أراه منفذاً وحيداً لي نحو الحياة، وهو الوحيد الذي لم يدعني أن أتجه صوب الماضي السحيق، ماضي أمه الراحلة، وأشياء جميلة أخرى. وإلى الأمام حيث كان خياله يقودنا، نزعت موجة عاتية كفه الصغير من يدي، فكنت أصرخ دون أن أسمع حتى صوتي، لعلّه ما زال محلّقاً في السماء ولم يبتلعه البحر، لكنّ صوته من أرشدني إليه من تحت الماء أن آتي إليه، كي أراه غافياً مع بعض من أصدقائه.

****

اللّه يحفظ راعي البيت

مهما تمطت مسافات الزمن، وأخذت السنين بالاتساع، ثمة ما يبقي الأماكن كما هي بلحظةٍ ما، وكأنّ الزمن توقف هناك والتقط صورة للحدث. ما تزال تلك "الدربونة"[1] المظلمة تأخذ حيزاً بذاكرة العمر، ومازلت هناك، بلحظة سمعت بها صبية "الدرابين" يطبلون على علب الحليب الفارغة أمام البيوت، وهم يغنّون بأعلى اصواتهم الأغنية الشهيرة ذات الدعاء: "اللّه يخلي راعي البيت، آمين وبجاه اللّه وإسماعيل، آمين." سمعتهم، ثم ركضت خارجاً من الدار كي أراهم فإذا هم صبية منطقتي، جاؤوا بواحدة من متع العطلة الصيفية، علّهم يجمعون بعض النقود ويشترون ما يشترون بها، ولأنها ليلة واحدة لا تتكرر إلا مرة في كل عام، ذهبت معهم بعدما وجدت في بيتنا علبة حليب نيدو كانت للتو قد نفدت، كان القرع عليها مميزاً بصوتٍ أعلى مما كانوا يحملون؛ لكبر حجمها، لكنني كنت أقف آخرهم دون أن أدري لماذا. وفي أول محاولة لي معهم، تأملت المنزل الذي وقفنا عنده، كان المصباح الوحيد في واجهته مُعطلاً، وسكون غير معهود في بيوت شوارعنا يحيطه، فبدأنا بالطرق على علبنا، ثم ازددنا بقوةٍ ظناً منا أنّ أهل الدار نائمون وسنوقظهم كي يعطوا لنا، وإذا برشة ماء أتت من خلف الباب

[1] - كلمة عامية تعني الزقاق.

وبللت من كان في مقدمتنا وجعلتهم يهربون، فكانت ردة فعلنا أغنية أخرى نستخدمها في حالنا هذي: "أهل الفقر رشو علينا مي حار" ... واصلنا الطواف حول البيوت، صاحب بيتٍ نثر النقود المعدنية نثراً على رؤوسنا؛ فصرنا نبحث عنها تحت الضوء الخافت، وكلّ من يجد ما نثر ذلك الرجل يكون له، ولم أحصل على شيء سوى النظر لفرحة الصبية بما وجدوا، أراهم يتوغلون نحو دروب أكثر بعداً عن منزلي، وبرغم ما سمعت منهم أنّ هنالك بيت أعطى ساكنه لصبية قبلنا مالاً لم يخطر ببال أحد، لكن خوفي من الليل وبعد ذلك المكان منعاني أن أستمر معهم، ثم رحلوا، ورويداً رويداً كان صوت قرع علبهم المعدنية يختفي حتى ما عدت أسمعه. كنت أطرق بعلبتي وحيداً، تاركاً لقدمي خريطة العودة للبيت دون الحصول على فلسٍ، وبذات الوقت أتحسس مكان سقوط قطعة نقود على رأسي حينما رماها صاحب الدار علينا، أبحثُ عنها معتقداً أنها اختبأت تحت شعري الكثيف الذي لم أحلقه منذ أن بدأت العطلة الصيفية، ولن أحلقه حتى تبدأ المدرسة. ومما لم ينهِ تلك الليلة، وجعل الزمن عندها يتوقف ويأخذ لي صورة، توقفت عند باب دار كان لونه أبيض مزخرف من الأعلى بتاج كملك ضائع في "درابيننا"، بدأت الطَرْقَ على علبتي، وأغني أغنية تلك الليلة

لوحدي، فإذا بباب الدار يفتح، وامرأة تنادي لي أن أقترب إليها وآخذ منها ما ستعطي، لم يكن صوتها بالغريب، لكنني لم أصدق أنّها معلمتي لدرجة أني سألتها إن كانت هي بالفعل أم لا، فضحكت كثيراً وقالت لي: سأعتبر نفسي لم أعرفك، تعال وخذ.

****

لوحة المفاتيح

كان المنفذ هو الأمل في الولوج في الأمس، فلم أبالِ بضيق دائرته التي لم تكُ تتسع لمرور جسدي، وكلّ اهتمامي كان وجود فتحة ما بجدار الزمن البائس سأستطيع النفاذ منه، وقبل أن أرحل التفتُّ لحاضري وبصقتُ بوجهه، ثم شتمته وشتمتُ أباه وأبا أبيه، ثم أدرت ظهري له بعدما صمتَ وخافَ، خافَ مني ومن غضبي لئلا أحرق الدنيا عليه، صمتَ لأنه قابل أول مرة أحداً سينتزع عنه حاضره، ووجد ثقباً لم يجده أحد من قبله بجدار الزمن، بإمكانه أن يلج فيه ولا يعود، يعيش هناك قرب أجمل ما صادفه: الأصدقاء، الأماكن، الوجوه، وهنالك لوحة مفاتيح جميلة جداً، فيها خيارات مسح الذكريات الأليمة والحوادث المزعجة والأشخاص غير المرغوب بهم. كما ويوجد مفتاح رائع ونادر، يغير النتائج فيما كان مطلوباً ولم يحصل. فلو أنّ فتاةً صدت أحدهم وأخبرته إن لم يكف عن إزعاجها بإخبارها عن ترهات حبه لها، فستضطر إلى زرع كعب حذائها برأسه وترك ثقباً خالداً فيه. سيغير ذلك المفتاح تلك الحادثة ويقلبها رأساً على عقب، وستأتي إليّ بنفسها، وقبل أن أسمح لها بالحديث، سأفتعل ذلك الدور الذي طالما رأيته بأفلام مصرية قديمة: سأجلس على كرسي دوار، وأضع رجلاً على رجل، بين إصبعي يدي سيجارة كوبية سمينة. ستقول إنها أحبتني مذ رأتني

جالساً لوحدي أشرب فنجان قهوة، وأن الأوقات كانت قاسية معها وهي تنتظرني كل يوم بذلك المكان، فضاقت بها السبل بعد تجاهلي لها لتقرر دون مقدمات المجيء إليّ، حينما كنت أدخن سيجارة كوبية سمينة، وبجلسة ذات مشهد درامي، لأسمع صوت امرأة تقول لي: أحبّك.

إلى هنا وسأوقف ذلك الزر الرائع بلوحة مفاتيح أحداث الزمن. كي أقرر ما سأفعله بإرادتي، أأحبّها أيضاً؟، أم إنّ مخططاتي من أجل القادم ستكون أجمل مع امرأة سواها، أو حتى بدون امرأة. ينبغي أن أقرر بسرعة فلا شيء سأخسره إن بقيت أفكر سوى إضاعة الوقت والتأخر بمعرفة أزرار لوحة المفاتيح الباقية، التي لم يصنعها الغربيون، إنما بداخل كل منا، يصنع ما يشاء منها من مفاتيح وبخيارات ما شاء خياله أن يصنعها ليهرب، ويستمر بالهرب نحو الأمس، عبر ذلك الثقب الموجود في جدار الزمن.

****

لا أحد يقرأ

بائعة الخضار امرأة تقترب من العقد السادس، تجلس كل يوم وسط السوق على علبة من صفيح، وكلّ ثلاثة أيام أو أربعة أشتري منها ما تبيع، أشتري منها لأنها تعطيني دائمة زيادة في باقات الخضروات فتدعو لي أجمل الدعوات بأن يحفظني الله ويرعاني، ثم تسأل عن عائلتي التي لا تعرفها بالأصل، وتدعو الله لنا بكلّ الخير والأمان، وبعد أن أكمل منها ما اشتريت نودع بعضنا وأسمع خلفي دعواتها المريحة تلاحقني وكأني أحد الأولياء. لما أصل، أباشر متى ما اتسع لي من وقتٍ بإكمال روايتي، فقد وصلت لفصل ذهاب الرجل للبحث عن ابنه الذي غادر دون علمه للقتال في صفوف المقاتلين ضد الحكومة، وفي الطريق التقى برجل يقاربه بالعمر، كان ذاهباً هو أيضاً للسؤال عن ولده الجندي الذي يقاتل مع الحكومة ضد تلك الجماعة، كان ظنهما متقاطعاً، فقد اعتقد كلّ منها بوجود ولديهما بنفس المكان، وبعد أن علما بالأمر قال والد الجندي بعد حسرة خرجت على شكل زفير: لا أدري لمن أدع الله أن يحفظه، ولعلّك لا ترضى بما أرغب في دعائي. فكان قول الرجل الآخر له بأنه لا يمكن أن يدعو على أحد، سواء كان بالموت أو الحفظ، فالذي يريده هو أن تنتهي الحرب ويجف نهر الدماء، وولده الذي غادر حتى دون أن يخبر أحداً قد خط حياته ونهايته، وما رحلة

البحث عنه إلا مجرد تذكرة بأن العائلة ليست محطة يغادرها وقت ما شاء، بل هي الوطن الذي توجد فيه سواتر المحبة، وهي مبعث الحياة، أما الحرب فليس فيها غير آلام جرحى، وآخر شهقات الراحلين للموت، والتي لن ينساها من سينجو في أزمنة القتال.

توقفت هنا، لأني لم أجد شيئاً منطقياً يستطيع به الرجل أن يكمل ما يقول، الكلّ بإمكانه الحديث بالمثالية، ما يقوله صدق، لكن محكمة الحياة لم تعد تأخذ بشهادات الصدق، إنما بما رآه الآخرون، والإيمان مهما كان نوعه هو المرتكز الذي صارت فيه القضايا تنطلق نحو أهدافها، الرجلان كان دور الأبوة يزج بهما لمعركة الولدين، والولدان ربما بيوم سيتقابلان في حلبة المعتقد فيموت أحدهما ويبقى الآخر ويسمي نفسه البطل، أما الذي مات فقد صار شهيداً في عيون من أرسله. لم أجد أمراً منطقياً أكمل فيه الفصل، فالموت مشكلة من مشاكل صراعات الحياة، هو البداية عند البعض، والنهاية عند البعض الآخر، وهو حياة جديدة لدى البعض، وعدمية لدى البعض. أما الحياة فهي في الآخر مصنع كبير لإنتاج الموت بكل أنواعه، برغم أن كلّ الأنواع من ضروب الهراء، لكنها دوماً توشح الموت بتحديثات جديدة غير متشابهة، ويبدو أنّ سرَّ النجاح في استمرار ذلك المصنع بإنتاج الموت، هو عدم رؤية الناس أشكال الموت الجديدة من قبل، فتقتنع به منتجاً غير مُقلدٍ، وستقتنيه.

في السوق، كان مكان بائعة الخضار فراغاً جديداً على مخيلتي، لأني لم أعهدها سابقاً ومنذ أكثر من عامين، لم أعهدها مختفية، ومع وجود صفيحتها والطاولة المنخفضة، ثمة خطأ نوقع أنفسنا فيه، وهو برمجة أذهاننا على الحالات الثابتة، ودون أن ندرك إنّ التغيير ليس اصطناعياً نخرجه للواقع بأيدينا، إنما هنالك تغيير طبيعي يفرض نفسه على مقدراتنا، ويلاشي السكون الذي اعتدنا عليه. لم أبادر بسؤال الشاب الذي بجوارها، وهو أيضاً بائع خضار ثرثار ومهرج، وغشاش لأنّه لم يعطني نوعية خضار كتلك المرأة الطيبة، ومع إنّ لسانه يرش في ممر السوق عذب الترحاب للزبائن، لكن ما يبيعه هو العكس تماماً، أعطاني باقات كرفس حزينة، وفجل مبعد بالقوة عن الأرض التي كان منغرساً فيها، كما أنّه كان يبيع اللبن بأقل من السعر الموجود، فاكتشفت بعدما اشتريت منه أنه لم يكن لبناً، بل كان ماءً قد انتحل شخصية منتج من منتجات حليب الأبقار: فلا طعم ولا رائحة يذكران فيه. ولأنني أكتب منذ زمن روايتي الجديدة، والتي قررت إقحام الفلسفة بها، بدت آثار تفكري بها فلسفة ما كان يصادفني، وتلك مشكلة تصيب أي كاتب، فيبدأ الولوج بحياة شخصياته، ويفكر كما يفكرون، حتى أنه يقلدهم أحياناً وهم من صنع أفكاره، والحقيقة أنه من الخطأ أن نمزج الحياة بالمُثل، لأنّهما لا يلتقيان إلا في عوالم مجردة من الألم. وذلك بائع الخضار، نبهني لمسألة سيطرة الاقتصاد في كلّ بقاع الأرض، فالجشع هو التسمية الحقيقة لمفهوم الاقتصاد، والغش هو المفهوم

أيضاً لمعناه، والفقر الذي يغطي الجزء العظيم من الأرض هو المعنى الأدق له. سأنتظر عودة البائعة الطيبة، وأعود من جديد أسمع أدعيتها، وأشتري منها ما هو جيد.

لا أحد يقرأ، تلك الخاطرة التي طرأت وأنا أواصل كتابة الرواية، خصوصاً وأنها معقدةٌ شيءً ما، بل إنّ القراءة قد انحدرت وحلّت محلها الجملة المقتضبة، الجملة المركزة التي أظهرت جنساً غريباً في الأدب لا أقدر تقبله مهما كان، فلا يوجد في العالم قصةً تتكون من سطر، حتى الأخبار تحتوي على السرد، والوقت لا يسمح لي بأن أزيح من مخيلتي ما طرأ على مسار الرواية من أجل تلك الخاطرة، وسأكملها على أية حال، ومهما حصل، فبعد افتراق الأبوين وذهب كلٌّ يبحث عن ولده ويسأل عنه، راح كلٌّ منها عكس اتجاه الآخر، وحسب ما أتاهما من أخبار حول سيطرة المتقاتلين على جبهات جديدة، فخسر جانبٌ أرضاً وكسبَ جانبٌ آخر، مما أدى إلى تقاطع آخر في وجهتي الأبوين، وإن كلّ واحد منهما ذهب إلى أرض عدو ولده، وسيلاقيان ما لم يكن في حسبانهما، كانا كأسيرين قد وقعا بشرك عدويهما، فكان ما لقياه بادئ الأمر وكشيءٍ معتاد، هو سوء التعامل، والضرب بأعقاب البنادق على ظهريهما، ثم الزج بهما بسجن لحين بدء التحقيق، كان ذلك يحصل بنفس الوقت، وبنفس الطريقة، حتى إنهما حينما دُفعا إلى غرفتيّ السجن وقعا على الأرض بوقتٍ واحدٍ مع إن المكانين كانا مختلفين لكلّ منهما. وأرض العدو، أول شيء خطر ببالهما وشاهدا ما تحتويه من عدة وعتاد

ورجال، والأمور تسير عكس ما تقوله الأخبار، والتلفاز لم يعد يظهر الحقيقة، تأكد لهما، لأن الحقيقة لا تحتوي على وجه واحد، بل هي شيء مُجسّم نختار منها ما يلائمنا من وجه، أو نشاهد ما نرغب فيها من وجه، أما الواقع، فهو تلك المرارة التي أُرغمنا على تقبلها من البداية وحتى النهاية. ففي المرة الخامسة، والتي كنت قد يئست من رؤية بائعة الخضار فيها، وجدتها متشحة بسواد أقل ما يمكنه أن يقول أنّه المتحدث الرسمي للحزن. وبعدما ألقيت تحيتي، استفسرت عن سرّ ذلك الغياب المفاجئ، قالت وهي تنثر دموعها في كلّ السوق: أخذت الحرب ولدي مني. لم يعد لديها غيره في حياتها، تركها تلهث في سباق الواقع، لا تدري أين وجهة حياتها من بعده سوى البكاء في المتاهة دن أن يعبأ أحد لها، فالموت مجاني يكون في الحروب، فكيف وإن الحرب بدأت مذ أتيت ولا أعتقد أنها ستنتهي أثناء حياتي، واسيتها بصوتٍ حزين حقيقي، ثم اشتريت منها باقاتٍ خضر وأضافت لي هذه المرة باقة حزن زيادة كهدية!! لم يكن ما أقوله أكثر من المواساة، وتقديم العزاء، ومع أن المواساة صارت أمراً استهلاكياً أكثر مما يجب، والمتلقون صاروا أكثر ضجراً بالاستماع للكلمات المعادة التي لا تغير في الأمر شيئاً، إننا نستمر باجترار سلوكياتنا على نحوٍ ممل، دون التفكير بالغير، أو نفكر بالتغيير حتى نواسي كعادة وبلا شعور. وتلك المرأة الآتية من صلب الواقع، من الصعب أن توضَع بدائرة الفلسفة والتنظير بحياتها، بل ومن المعيب أيضاً فلسفة حياتها دون أن نغير من شأنها أولاً، ثم بعد ذلك

بإمكاننا إبراز بطولاتنا الفكرية ونستعرض بها أمام الجميع، تلك هي الأحجية التي أوقفت نفسي بإدخال البائعة في روايتي، لأن حياة الناس ليست ورقاً وحسب، ولطالما اشمأزت نفسي من حالة تصوير الناس وهم يموتون بحوادث الحروب وغيرها. فقد كان الأجدر بالمصور أن يحيي إنسانيته أولاً، ويساعد من يحتاج المساعدة وصول الإسعاف، لا ينتظرها ويوثق بعدسته موت مصاب تعذبه أنفاسه الأخيرة، لن أكتب عنها حرفاً، ولن تكون واحدة من شخصياتي الخيالية التي يصنعها ذهني، هي الواقع المرير الذي نتقبله من البداية إلى النهاية، وهي الجزء الفريد الموجود في هذا العالم والذي يمثل الضحية جراء قسوة الحياة مقابل ذلك الواقع. عاودت بتلك الليلة كتابة ما لحق بالرجلين، فقد تمت التحقيقات معهما، ونالا لقب التهمة التي سيحكمان عليها، فأب الإرهابي، أي الوالد الذي التحق ابنه في جماعات قتال الحكومة، سيساق نحو القانون بعدما أقر بمجيئه لابنه، وبرغم ما عرض على المحققين من تبريرات مقدمه، لم تكتفِ القناعات بكلامه ولابد من المزيد من الإجراءات. أما والد الخائن، أب من كان يقاتل في صفوف الجيش الحكومي، فلم يسعفه هو الآخر أيضاً كل ما أقسم به بأنه جاء بقلب والد يريد الاطمئنان عن ولده، لأن أب الخائن هو خائن أيضاً، وسيكون مصيره مصير أي شخص زاغ عن الحق واتبع أهواء وظُلم السلطان. في الحقيقة لم تكن هذه هي المشكلة بالنسبة للوالدين، فالأمر وإن كان يعنيهما، لكن الاهتمام الأكبر كان في ذهنيهما هو مصير ولديهما

وسط كومة الجحيم تلك، هنا القتال هو من يتحدث لا غير، وإذ وجدا ما وجدا بحياتهما الطويلة والعريضة، لكن الصغار لا ذنب لهم بأن تنهي حياتهما بسرعة رصاصة، وكأنّ مقدمهم للحياة ودخولهم فيها كان من أجل الخروج منها، وإسدال الستار عليها كمسرحية بائسة. ستكون محاكمة والد من كان يقاتل بجانب الجيش الحكومي هي المشهد التالي، سيقاد بعد أن عُصِبت عيناه وقُيّدَ بالسلاسل من أعلاه إلى أسفله، ثم النهاية التي سأفكر ما المتوقع في حصولها في تلك المحاكمة وأنهي الفصل.

ستذهب للعمرة كي تخفف من حمل أحزانها، قالت لي بائعة الخضار، وهناك ستدعو الله كالمعتاد أن يحفظني من كلّ سوء. وهذه المرة الأولى أشعر بأن تلك المرأة حاولت إخباري كجواب عن اهتمامي في غيابها في الأيام المنصرمة، وكرسالة طمأنينة بأنها ستكون بخير، مع أن وجهها كان كأرضٍ لم يمر عليها الماء منذ مئة سنة، ولم تنبت فيه لو غرسة سعادة بيوم ما، فرحلت عنها وبنفسي رضي بأنها ستكون على ما يرام، أو لعلمي سبب غيابها، فهي الوحيدة التي تشير إلى التناقض الكبير في عالم السوق، و لو أنها امتلكت بيوم ما زمام أمور السوق العالمية، لزال الفقر إلى الأبد، لكن وعلى ما يبدو إن العالم لا يريد أن يكون رسل السلام في المقدمة دائماً، بل يظهرون كلما اشتهى ذلك، وبعد أن يكون القهر قد أكل من الضحايا ما أكل. ومن جانب آخر، فمن أتبضعُ منهم لا تربطني معهم علاقة سوى الأخذ والعطاء، برغم أن بعضهم يلقبني بالأستاذ لسبب غير وجيه، لكنهم

يتعاملون معي حسب نظريات السوق كالغش والكذب مثلاً، أحد البقالين بدأ بزيادة أسعاره مواده في كل مرة أشتري منه، مع أن في ذلك نظرية غبية في كسب الزبون، ما جعلني أتركه، بل جعلني أخاصمه وصرت لا أمر من مكانه حتى، وأعزو سبب تصرفه هو قراءته الخاطئة في فهم الناس، هو حاول استغلالي لا أكثر، ونسي بذلك معادلة كسب الزبائن، وهو بالتالي ضحية الواقع المؤلم في اللهاث وراء كسب العيش، فالبسطاء من الناس منذ لحظة ولادتهم وحتى موتهم مؤمنون بفكرة واحدة: كسب العيش. ففي أول دقائق التحقيق مع والد الخائن، وبرغم الافتتاحية الطويلة التي ألقاها أحدهم، كان الأب معصوب العينين، ويحاول عبر صدى من كان يتحدث التأكد من الجهة التي يقف بها ويلقي كلامه. قال لهم أنّه رجل جلبه حنينه للسؤال عن ولده، وأنه أتاه الدرب فأوقعه صدقه بهذا المأزق، ولديه خبر رجل ربما سقط بيد أعداء ولده أيضاً وأعدائهم، ولا يستبعد أنه يعاني ما هو يعانيه، هو يريد أن يعيش لا أكثر، وجاء ليقول لولده بأن لكّل إنسان بداية منطقية يبدأ منها، وله نهاية من الضروري أن تكون منطقية أيضاً. لكن السخرية التي كان يسمعها من المستخفين لقوله جعلته يخفض رأسه كحالة إعلان عن يأسٍ ما، وإن الصمت هو من سيلعب الدور في مشهد حياته الأخير، وليس في الأمر من بد. أما هناك، في الجهة الأخرى كان الاتهام مخيفاً، ذو وجه مرعب لا يمكن لأحد لأن يدافع عن نفسه أمامه. قيل للرجل بأن المعلومات مؤكدة عن ارتباطه في الجماعات الإرهابية، وما

قاله هو عن سبب مقدمه يحمل حججاً واهية وهزيلة، ولإثبات عكس ذلك؛ فعلى ولده المطلوب أن يسلم نفسه كي ينقذ والده، ولحين ذلك سيبقى الأب محتجزاً يلاقي الجزاء العادل في قضيته. فقال كمن يقول آخر كلمات حياته: قد غادر ولدي دون حتى أن يخبرني. فأدار بعد ذلك أنظاره نحو السماء عبر شباك السجن الصغير ليأخذ الصمت هو الآخر أيضاً، الدور في مشهد حياته، وربما الأخير.

السابعة صباحاً، أيقظني صوت انفجارٍ قوي، تبعه صوت رصاصات قليلة، ثم بعد دقائق بدأت أصوات الإسعافات تتكاثر. الأمرُ عادٍ فهو إما عبوة أو سيارة مفخخة انفجرت في مكان ما في المدينة، سيكون هنالك ضحايا وجرحى، بعد ذلك سيتم تنظيف المكان ونسيان الأمر بانفجارٍ جديدٍ في مدينة أخرى من مدن البلاد. والذي روضت نفسي فيه هو ألا أجعل عينيّ ترى مباشرة دم إنسان أو بقايا منه ملقاة وليس ما محيط بهما غير أسف الآسفين. روضتها منذ البدء بأن لا تشاهد تلك المآسي، وأكتفي بما تنقله الأخبار من بطولات الصحفيين وهم يصورون الأوصال والدمار، فرأيت مما رأيت، بقايا مكان كنت أتبضع منه، كانت هنالك باقات خضار مدمية ومتناثرة، وصفيحة منبعجة ووحيدة أعرفها لمن، أعرفها جيداً وكأنها كانت عبر الشاشة تهتف بتصريح لي بالمجيء؛ فأشاهد مكان بائعة الخضار العائدة للتو من العمرة؛ فلم يبقَ غير المكان أما صاحبته؛ فقد تشققت من وجهها المجدب ألف ألف ساقية دم وماء، ومات هناك أيضاً جارها بائع اللبن

الشقي، والبقال المخادع البسيط. مات الجميع ولم يعد هنالك أحد، وكأنّ في كلّ هذا الكون لا أحد يرى، ولا أحد يسمع، ولا أحد يقرأ، ولِمَ يقرأ؟ سأمزق ما كنت أثرثر بروايتي، فلا أحد يقرأ، وعبثية ما نعيشه يجيد مؤلفها نزوحنا حيث الموت، ويرى في الحياة تليق أن تكون لنا، مصنع موت كبير.

****

لحية خرّيج

كانت آخر لحظة وثّق فيها بسمته وأخرجها على شكل صورة، حينما شاهد نفسه مع جماعته من البنات والشباب في صورة التخرّج. تمعن في وجهه جيداً، رآه مستديراً أكثر بقليل من الآن، وجسده ليس متعباً كما تذكر، بل كان فيه حيوية حصان يصحو قبل شروق الشمس، ينعش نفسه بحمامٍ جيد، ثم يطلق بسمته نحو المرآة قائلاً لمن يشاهده فيها: صباح الخير أيها السعيد العاشق. أحياناً كان يقدم العاشق على السعيد، حينما يقضي أغلب وقته مع زوجته المفترضة مستقبلاً، والتي افترض معها كل ترتيبات حياتهما في القادم من الأيام. وأحياناً يقدّم السعيد على العاشق لسببٍ اعتبرَهُ وجيهاً، فقد رأى أنه لم يجد من السعادة قبلاً مثلما يعشها الآن، وربما ستكون سعادته هذه بداية نحو سعادات كثيرة آتية؛ سعادة التخرج، العمل، الزواج، المال، الزوجة الحامل، الأطفال، والكثير الكثير من أوقات المرح. وبعد أن يطلق تصبيحته لنفسه، يتجه إلى الكلية التي اختصرها بالصورة الأخيرة، يشاهد من خلالها أيضاً، أحدهم كان قد أطلق عليه مع جماعته المشاغبة بالصفيق، الذي حصل على عقدٍ في دبي بسرعةٍ مذهلة، وسافر تاركاً البلاد لمن فيها، الصفيق الذي ينشر كلّ مساء على صفحته الفيسبوكية أماكن تلك المدينة المذهلة، برجها الذي لم يعرفه إلا من خلال الضجة العالمية

حوله، يأخذ معه صورة من تحته، بقربه وبعيداً عنه. وبضغطة إعجاب حسودة، يجبر على إرسالها وفي وده أن يترك تعليقاً أزلياً تحت تلك الصورة: لم أكن أعرف أن الحظ يعرف الأغبياء أيضاً.

****

المرة الأخيرة

في المرة الأولى، التقينا بالسنة الثانية من العقد الثاني في العمر، كنا صغاراً ولم نكُ نعرف ترجمة الحياة إلا بما تيسر من هوج صبي ما زالت عوالق الطفولة تطفو في أعماق روحه بداخلي، أما هي فقد كانت تحاول القفز نحو ضفة المراهقة والتعقل، وكلّ جهدها إثبات صواب تصرفاتها معي، ومع الآخرين، وليس الأمر إلا ركض سنين لنترك مرغمين الطفولة، والصبا، وكلّ الألعاب التي مُلئ شارعنا الضيق بصياحنا بسببها. ثم حصل في مرة ثانية أن التقينا، كنا حينها كنصفي تفاحة. كان كلّ شيء يشير إلى الحبّ قد قالت عنه: إن المرء لا يمكن أن يكون عاشقاً إلا إذا تحول شفافاً، حينها سيرى الجميع قلبه كيف ينبض، قلب العاشق تكون نبضاته أكثر تسارعاً، وثمة رعشة لا تغادره...

كانت تحلل كلّ شيء بطريقة ساحرة، أذكر أنّنا تحدثنا عن الحرب، وأذكر جيداً ما قالته عنها، فالنصر فيها فرضية غير موجودة، لأنها تأخذ ولا تعطي، ولأجل ولادة حرب جديدة، كان لا بد من بدعة يتم خداع الناس فيها، فكان مصطلح النصر تلك البدعة. كنت أتأمل شيئين فيها، أفكارها الجميلة التي مثلت روحها أمام الجميع، ونظارتها الطبية التي لم أعرف لِمَ استهويتها حينما أشاهد عينيها من خلالها، ربما سطحيتي من أرشدتني كي

أحبّ نظاراتها، أو ثمة سبب خفي لم أكتشفه بعد، فاحتفظت بإعجابي لأفكارها كحبيبة لنفسي، أما نظاراتها فقد أفصحت عن تأملي لها، بعدما وقعت وتهشمت نافذتيها ولم تعد سوى إطارٍ مذهب لنظارة كانت جميلة. عقبت بعد ذلك بقولة جميلة أخرى، وإنها أحياناً بحاجة للتخلي عن نظارتها الطبية تلك، كي ترى الأمور بحقيقة نسبية أخرى، لتحكم بطريقة مجردة من المطلق، فلا حقيقة في الحياة مطلقة، ولا وهم كذلك...

في المرة الأخيرة، تحدثنا كثيراً عن الموت. قالت: إنه سفر من شروطه أن ينام الإنسان أثناء رحلته، وحينما يصل سيرى بعينيه من غادروه قبله، إنها رحلة مختلفة بشكل بسيط لا أكثر... ضحكتُ كثيراً، رغم إرهاقي من قضاء ليلة كاملة بسهر مستمر، رأينا الشمس معاً وهي تشرق على الدنيا بيومٍ جديد، ضحكتُ كثيراً حينما قطبت حاجبيها وأعلنت اكتشافها المبهر: إنّ الموت مجرد رحلة مختلفة بشكّل بسيط. ولست أدري ما أضحكني في حقيقة الأمر، ما أدريه فيها، إنها تفسر الأشياء بشكل جميل، حتى ذلك الغياب الكبير، فسّرته بطريقة حلوة، كحاجبيها المطرزين على بياض جبهتها، وكما صوتها الذي حمل اسم الموت بنغمة ملائكية. في المرة الأخيرة، حينما أعطتني الجرعة المقاتلة ذلك المرض الكريه في المشفى، لم نتفق إن كنا سنلتقي في تلك الرحلة المختلفة، ولم نتطرق لو أن أحداً منا رحل كيف

سيتصل بالآخر فيخبره كيف كانت تلك الرحلة. وليتني أسمع منها لو نصف اكتشاف بكيفية المواصلة والاتصال، فأنا لا أعرف بدونها كيف أكون، سوى أنّي نمت كثيراً في تلك الرحلة الطويلة، ووجدتُ نفسي مع أشخاص أذكر أنّهم ماتوا قبلي.

****

مقهى الضياع

كنت قد تركت ذلك الولد وأنا غاضب عليه بعد فعلته تلك. تركته في اليوم الثاني دون أن أتكلم معه، هو كان يدري بأني غاضب، ولن أرضى عنه، لكنه بدا بعد مرور الزمن أنّه كان يلهو لا غير، وكنت أفهم بأنه كان يضيع الوقت فاتضح أن سُنّة الوقت الضياع، ومهما فعلنا لن نمسك بلحظة واحدة من حياتنا، ومصيرنا التلاشي صوب آخر لحظة نتنفس فيها، ثم نرحل. كان فصل الشتاء أكثر ما يحبّ، يحبّ فيه البنات، يسهر، يقرأ ويكتب ويتفلسف برؤوس الأصدقاء، الذين كان أحدهم مدمن دومينو، وإن ضاع فاسأل أي شخص، وسيقول لك بكل ثقة أنه هناك، في ذلك المقهى الضائع، تجده يطوق بكل أصابع يديه قطع اللعبة ويفكر، وهو عكس كلّ من في المقهى، يُسعد حينما تشاء الصدف ويكون لديه قطعة (الدوشيش) ذات الاثنتي عشر نقطة سوداء، ذلك المدمن هو صديق لذلك الشاب، وذلك الشاب يقدس كلّ أوقات الشتاء، ويطلق فيها كلّ أفكاره في السماء مع البرد، والظلام والمطر والضباب، يطلقها علّها تأتيه بروح الشتاء التي تمناها أن تسكن فيه ولا تغادره كلّ العمر. وفي ذلك اليوم، كان يجرب الارتعاش برداً حينما داهم تجربته تلك وقاطعها المدمن في دعوة منه بلعب الدومينو، ففي المقهى دفءٌ أيضاً، وممكن أن يجد الجميع الشتاء فيه، قال

له. فكان الشرط هو اللعب لما قبل المغيب، كي يرى شمساً حمراء بردانة أخرى، يراها وهي ترحل بين كومة الزمهرير المزدحم في الأفق. هو لم يبالِ لسخرية المدمن من شرطه، وذاك لم يبالِ أصلاً لما قاله المخبول هذا، ثم بدأ اللعب، شوط مع شربة قدح شاي، وآخر مع القهوة، وأشواط كثيرة شربت كلّ ما هو ساخن، وأكلت الوقت حتى استفاق من اللعب في الساعة العاشرة ليلاً، فخرج راكضاً ليرى الشمس علّها لم تغب إلى الآن، وإنّ الأصيل قد توقف لأجله، لكنه لم يجد إلا ظلاماً، وبرداً كثيراً قد احتل السوق، واحتل كلّ زاوية من زوايا الأمكنة، حينها كنت قد تركت ذلك الولد وأنا غاضب عليه، تركته ولم أمشِ معه في تلك الليلة حينما ذهب للبيت محمّلاً بذنب كبير، ككبر مثانته المعبأة بالشاي والقهوة والماء، وتركته حينما أفرغها بين الظلام عند جذع شجرة منسية على الطريق، كان يدري أنه مهما تخلص مما شرب بذلك اليوم، لن يشعر قلبه بالانتعاش، أما أنا... فلم أكن أدري أنه كان يلهو، تركته آسفاً لما فعل، وآسف جداً، لأني لم أسمح له أن يبرر ما فعل. بعد مضي أكثر من عشرين شتاء، ما زلت أرى ذلك الولد نادماً وحزيناً – الذي هو أنا – وليتني كنت أدري بأن الوقت لا يمكن الإمساك به، سنته الترحال ونحن التلاشي، ما زلت أراني أقف عند ذلك الجذع وسط الظلام، أفرغ مثانة ألمي، دون أن أدري متى سأنتهي.

****

المقاتل

الأخبار.. أعلنت المذيعة عن بدايتها باستهلالات مُقطّعة، كان أولها بشارعٍ من شوارع حلب، تتجه حشود من البشر فيه إلى مكان فيه أمن، وخلاص مما يدور في المدينة، رأى جانبي الشارع بقايا أبنية قد أكلاهما فكّا الحرب الدائرة هناك، ورأى أيضاً وهو يغالبه النعاس على فراشه، المقطع الآخر من تلك الأخبار، رأى الموصل، كان هنالك مقاتلين، ودخان كثيف في السماء وأناس يهربون أيضاً نحو الأماكن الأكثر أمناً، وقبل أن يغفو، رأى خبر حرب في اليمن، وأخرى في ليبيا، ثم رأى نفسه ببذلة عسكرية متربة، يقف على مبعدة من مقاتلين مختبئين مثله خلف ساتر ترابي درءاً من رصاص الاشتباك، كان لا يجيد السلاح الذي وجده في يده، ولا يدري من يقاتل، أو مع من هو، لكنه خلف ساتر، ويرى المسلحين وهم يطلقون الرصاص، حينها صحا من نومه على صوت انفجارٍ شديدٍ وقع بقربه، وآخر ما شاهده تطاير أشلاء من كانوا بقربه نحو السماء، أما هو، فقد نجا حينما صحا ولم يطر كما أولئك، لكنه وجد البذلة التي كان فيها في المعركة تحيط بجسده، حتى إن التراب الذي علق فيها قد تساقط أكثره على فراشه، ونفس خليط العرق والغبار في جسده ما يزال يشم رائحته عبر أمكنة وأزمنة مختلفة، واكتشف مما نقل من مكان القتال، رسالة بجيب بذلته، كانت من مقاتل لم

يعرف اسمه قط، ومع من، تذكر مما قاله المقاتل حينما أعطاه إياها: حينما تصل، أريدك أن تعطي هذه الرسالة، فلم يعد هنا وقت للحياة، ولا مكان للحياة. أراد عبر تحريضه لذاكرته معرفة أين هو كان، ولأجل من كان يريد القتال، ولمن يوصل الرسالة، فقاده إغماؤه نحو المعركة أيضاً، حقاً، هو أراد الوصول إلى الجبهة، فربما سيكتشف كما حرض في البدء ذاكرته في معرفة بعض الأسباب، سيحاول اكتشاف لأجل مَن هذه الحرب، وربما سيجد خلاف ما يقوله المحللون ويتوصل للحقيقة عبر عالم منافٍ للواقع، وكما الحرب التي لا تمت _مهما كانت أسبابها بليغة_ لواقع الحياة بصلة لأي شيء. في آخر دقيقة للهدنة، وصل فبدأ الاشتباك. كانت بندقيته نفسها بيده، ثم صار يركض عبر أفعوانيات الخنادق نحو جهة مجهولة، هو يركض خلف مَن أمامه، بلا قضية، مجرد راكض مسلح ربما سيموت بأي لحظة، فبدأ مجدداً بتحريض حواسه، وحاول بذكاء خاطف ممازجة واقعه هذا بغير واقع كان هو فيه، فسأل بعدما أوقف جندياً خلفه: من نحن؟

-إننا المُحقّون، هكذا قالوا لنا، ألم تسمع جيداً ما أخبرونا به منذ أول يوم من الحرب؟

وفي نهاية الخندق، ثمة عشرة أمتار كان على الجميع اجتيازها كي يدخلوا دروباً ما بين بيوتٍ ومبانٍ مدمرة، ثم بعدها الوصول نحو نقطة الالتفاف للنيل من مجموعة من العدو. هكذا تسربت إليه الأنباء من قِبل البعض، وحينما وصل تلك الدروب، كان يقلّب أنظاره نحو الدمار، وهو الوحيد الذي

لم يصوّب سلاحه كما الآخرين نحو أعلى البنايات وثغراتها، فأخطأ كما اكتشف أو كما هم اكتشفوا حينما سأل ثانية نفس المقاتل، فقد تم احتجازه، وأعلنت المحكمة العسكرية بنفس الشارع الذي كان فيه، أعلنت إعدامه والتخلص منه. قال قبل أن يرمى بالرصاص: كان حرياً أن تطلقوا عليّ الرصاص منذ السؤال الأول، لأن سؤالي الآخر لم يكن بالخطورة في كشف الهوية التي نحملها، قد استفسرت: أين نحن. برصاصة واحدة، تمت إصابته بساقه، وتركه هنا، فربما سيأتي من يقول له أين هو الآن، وبالفعل، بعد ساعات قليلة من الاشتباكات والقتال المخيف، رأى مدرعات تتقدم نحوه قادمة من أول الدرب، ثم رأى بضعة جنود يحتمون بجانبها يتقدمون نحوه، وبصعوبة كبيرة، حاول تحريض أفكاره نحو الأحداث التي حلّت به، وأن يغير وجهة تواجده نحو اليقظة، لكنه وقبل اللحظة الأخيرة من محاولته أحسَّ بيد تمسك به، يد جندي قد فقد أسنانه الأمامية حينما تبسم بوجهه وهو يقول له: في الحروب، أحياناً يشح الموت ويكون أمنية من يريد أن تنتهي المعركة، لكنه سيجد قبل ذلك الهزيمة وذل الأسر، أما المنتصر، فلا أجمل من وقت عنده، حينما يشاهد أحد الأعداء بين يديه. لم يكن الأمر بالغريب عليه، فالرصاصة التي مزقت جزءاً من ساقه، لم يكن من فعلها الألم، والنزف الذي استمر طويلاً، كان كأنما نبع متدفق كأي بئر في أي أرض، لكن الغرابة التي كان يستشعر بها، أنه لم يعد بمقدوره العودة والاستيقاظ كي يتخلص من هذا الكابوس،

فالقيود التي أحيطت به كانت مجرد وهم بإمكانه فكها كلما حاولوا تقييده بها، وفي خبر جاء من آسريه: إن كل الاتصالات التي أجريت مع كل جهات القتال لم تكن تعرف من هو، أو لمن يكون، فقد أريد من أسره مقايضته لو برفات جندي من جنود المجموعة، لكن أحداً لم يكن يريده، وتقرر بتلك المجموعة أيضاً تركه وشأنه، لا لأنه لم يكن نافعاً، بل أيضاً ربما يكون صحفياً لا أحد يحتمل مسؤولية حياة صحفي حتى في أقذر الحروب. وفي هكذا ظرف وجد نفسه بلا أي انتماء لهذه الحرب، الحرب التي لا يعرف بأي مكان هي، أو بين من، لكنه كان يدري أنها ممكن أن تكون ذات نفع لو أنه كان مع الكل، وضد الكل، سيكون كما تصور المقاتل الذي سيرمي الرصاص في كل الاتجاهات، لن يقدر أحد على مجابهته. فكان أول ما فعله محو الرصاصة التي استقرت بساقه، ثم حمل البندقية التي وجدها بيده أول مرة، وبعد ذلك فتش في جيوبه عن أي أوراق تشير لتعريفه في الاقتتال، فوجد الرسالة التي سلمها الجندي له، ما لفت نظره، لم يكن هنالك أي فضول في معرفة ما كان مكتوباً بتلك الورقة، وفي حفرة كانت من صنع قذيفة رمى الرسالة، فترك المكان متجهاً عكس ما اتجه إليه الجنود، بعدما تمسك بالبندقية من فوهتها، ورمى مقبضها على كتفه، كان يستمع لصوت القصف الآتي من كل الجهات، ويشاهد الخطوط البيضاء التي ترسمها الطائرات في السماء. تساءل إن كان الآن هو في حلب، أو في الموصل، أو ربما في حرب بعيدة الزمن، في كوسوفو أو الشيشان، فلا علامات طرق تشير نحو

أي مدينة أو أي مكان، تذكر أنّ آخر ما شاهده كان تحليلاً سياسياً حول ما يجري في المنطقة عموماً، ما قاله المحلل منطقي رغم أنّ أغلب المحللين ما عادوا قادرين على ربط أي حدث بما يجري، ربما هم أيضاً أضاعت بوصلاتهم الاتجاهات الحقيقية. وما كان منطقياً في التحليل الأخير الذي استمعَ له كان يشير إلى أن أزمة الاقتصاد العالمي لن يسمح لها العالم أن تتكرر، البلدان النفطية عليها إنعاش الأسواق بشراء الأسلحة، ولأجل أن تزدهر صناعة السلاح، فلا بد من حروب، ومن عليه القتال هي تلك البلدان التي أغرتها أموال النفط، النفط كما كان يقول المحلل يجب أن يستمر، لكن أمواله ستذهب للحرب، وليس إلى الجيوب. فقاطعَ المحللَ صوتٌ عالٍ كان قد أتى من إحدى المباني المقصوفة يأمره بالتوقف، وبالفعل قد استجاب، ثم رمى بندقيته بعيداً عنه ورفع يديه مستسلماً، رأى صاحب الصوت يخرج من فتحة نافذة وهو يتقدم نحوه، وفي هذه المرة، عبر السؤال الذي سمعه، وجد ثمة مجال لو صغير في النفاذ وتحرير شيءٍ من ذهنه نحو عالمه المادي، فقد سأله ذلك الشخص عن آخر ما كان أن يشاهده قبل أن يغفو، وأي قناة أخبار كان يتابع، فأخبره أنّه كان يتابع قناة الحدث الإخبارية، هي محطة فضائية تعيد الخبر الواحد أكثر من ألف مرة في اليوم، وأنها مختصة بنقل أخبار الحروب بصيغة البث المباشر، وقد اتفقت مع كل جوانب القتال بإرسال طائرات صغيرة تصور المعارك وهي تدور. أما ذلك الآخر، فقد شطّ ذهنه بخبرٍ واحد لا غير، كان مولعاً بمشاهدة مباريات كرة

القدم، لكن خبراً واحداً قد أرسله به نحو هذه الجبهة، في البدء لم يصدق أن مدرباً عالمياً لكرة القدم يسكن في منتصف أوروبا، في تلك البقعة الخضراء الجميلة بكلّ ما فيها لم يصدق أن مثل الشخص بإمكانه في لحظة أن يختفي، ثم يظهر وهو يحمل سلاحاً فتاكاً في شريطٍ مصورٍ ويهتف لأجل القتال في باديةٍ كانت تحيطها الأفق من كلّ الجهات، ويلتف حوله الكثير من الشبان، رأى بينهم لاعبين محترفين في نوادٍ مشهورة، أحدهم كان يلعب في نادي برشلونة، ولمح فيه نفس سيماء الغضب التي كانت ترافقه في الملاعب.

لم يكن بالطبع يعرف ما الذي جعل المدرب أن يتحول بهذه السرعة إلى النقطة المقابلة من دائرة حياته، لكنه وبطريقة غريبة، وجد نفسه في تلك البادية التي رأى فيها المدرب، ووجد طبعات أحذية تتجه نحو أفقٍ من الآفاق، ولا خيار سوى أن يسترشد بها، بعد ذلك أرشده الخوف من أزيز الرصاص ووقع القنابل نحو مدينة مهجورة، ثم اختبأ في واحدة من بيوتها، اختبأ من مقاتل أراد قنصه فأخطأ، اكتشف بأنه قد جر لمعركةٍ ولعدوٍ يجهله، فبدأ بعد اليأس من مناشدته لذلك القناص بأنه لا دخل له بما يجري، وأنّه وكما الكثيرين قد سحبه كابوس ما لهذه الحرب، فشرع بالتحضير لإعدادات المعركة: مكان محمي، سلاح، الاستباق بالانقضاض على العدو. وفي ثاني اشتباك، وقع القناص كفريسةٍ سهلةٍ غبيةٍ وغير مدربة بواحدة من رصاصاته، وشاهده كيف يتهاوى من أعلى البناية نحو الأرض،

ثم اتجه إليه كي يرى أول إنسان أطلق عليه الرصاص في حياته، كان محطماً بفعل سقطته، ومدمىً بلا ملامح، قلبه بقدمه باحترافية مقاتل بحثاً عن أشياء قد تهمه، فوجد في جيبه محفظة سمينة بما تحوي من أورق ثبوتية وعملات مختلفة لدول كثيرة، وجد عنده الكثير من الهويات، هوية الصليب الأحمر، وهوية رسمية فيها توقيع وزير الدفاع، وهوية نقابة الفنانين، هوية حزبية، كل هوياته كانت تحمل صورته نفسها

- فلِمَ إذاً ما زلت تختبئ بين الحطام وتترصد كل من هو آتٍ؟

-هنا المشكلة الحقيقة. قال متابع كرة القدم، فبعد أن تركت الجثة، رأيتها تركض وتبتعد عني، ثم بعد ذلك تم إطلاق الرصاص علي من فوق سطح بناية هناك، ولم أعد أقدر حتى التحرك كي لا أكشف نفسي، في هذه الحرب، صناعة الموت تتم بحرفية عالية من قبل العالم العميق، إنه عالم يتحكم بمصائر البلدان حتى يحيلها إلى جبهات شاسعة، يتم استقطاب البشر إليها بكل سهولة بطريقة غسل دماغه مهما كان فيه من ارتقاء معرفي، وجودك أنت هنا، ووجودي والمدرب، وربما سنجد بعدئذ فلاسفة يحملون السلاح، ويقاتلون من أجل القتال، أما ما يعتقدونه، فهو مجرد وسيلة تم تصنيعها بمصانع ذلك العالم، سيجدون كما أنت وأنا، سيجدون الحرب في منازلهم، تنقل لهم مباشرة، وبلحظةٍ ما سيجدون كما أنت و أنا أنهم بين المقاتلين.

- أتدري؟ لقد أطلقوا عليّ النار ولم أمت، كنت أشعر بكل شيء، ورأيت دمي ينزف، لكنني لم أفارق الحياة، حاولت أن أعود إلى سريري لكن دون جدوى، وكأن لا مخرج من هذا المكان، أنا مضطر لأن أعايش هذا الكابوس، بيد أني لا أرغب في الانضمام إليه، شأني شأن أي متفرج على التلفاز، لا أرغب في أن أكون مقاتلاً.

- كنت مثلك تماماً، لكن ذلك القناص عرف كيف يجعلني أقاتله، إنه يرينا كيف يموت، وفي الحقيقة يريد منا أن نموت، وبالنسبة لي فأنا أريدك معي مقاتلة ذلك الشخص، وربما سيأتي آخر لتدعوه أنت ليقاتل معك، وربما سيقاتل بعضنا البعض فيما بعد.

في محاولة للتخلص من القناص، وعلى طريقة فيلم العدو على الأبواب، أخرج متابع الأخبار رأسه من أجل أن يستهدف برمية ثم يباشر صاحبه بالتقاط العدو برمية أيضاً، وبالفعل تمت الخطة بنجاح، وهرعا بسرعة نحو القتيل، كان نفس القناص الذي قتل أول مرة، وملامحه هذه المرة بدت واضحة جداً، وبدا أيضاً جميلاً وصغيراً في السن، فلم يعثرا بعد تفتيش جيوبه غير محفظته تلك، وبنفس ما كان فيها، حينها حذر متابع كرة القدم الآخر باستفاقة هذا الشخص بأي لحظة، فهو الآن راقد بفراشه، وفي لحظةٍ ما يعود فيهرب، وربما يطلق الرصاص عليهما، انتظراه كثيراً وهم فوق سطح عمارة من خمس طوابق، كانت السماء تمطر عليهم، وبعض دوي بعيد لقصف مدفعي يدخل آذانهم، وقبل المساء انتبها إلى تحرك قدميه،

شاهداه كدودة تحاول الخروج من تحت التراب، فاستعدا لمواجهته مرة أخرى حالما يستعيد كامل وعيه، لكنه كان أكثر تعباً من أن يكون هنا، في معركة بلا نهاية، كان متعباً، بروح خائرة في جسد ملقى، وحينما فتح عينيه، سأل متابع الأخبار إن كان قد أوصل رسالته التي أعطاها له، خالط سؤاله بعض من الواقع، حينما استيقظ ولقى الرسالة بجيه، وبعض من الحلم، بعدما رمى الرسالة ومضى، فأجابه بالحقيقة، وأنه سيجدها في حفرة من ملايين الحفر التي صنعتها القذائف، أو هي من ستأتيه عبر سيول المطر، أو الدماء. وبيأس غلب على المقاتل، قال: يبدو أن لا أوان لنهاية الحرب التي سحبوا كل العالم إليها، حتى من في بيوتهم كباراً وصغاراً، لقد كنت أنت المنفذ الوحيد لي بأن توصل الرسالة إلى العالم الواقع، فهذه الحرب كابوس حقيقي، وبالإمكان الاستيقاظ منه لو أردنا، فيه نتحول إلى كل شيء، وأي شيء، وها أنا، قال، وكان كمن يختفي ويتلاشى عن الأنظار شيئاً فشيئاً: بمحفظتي أكثر من هوية، أعبر من خلالها كل الشوارع التي يدور فيها القتال، أنا مع من يطلق الرصاص، ولي هوية تغيث الخائفين، أبيع السلاح، وأعطي الطعام، والخيام، الكل يعرفني، أنا مع الأعداء، والأصدقاء، مع الحرب والسلام، أنا لي هوية تحمل صفة منافق، وأخرى ضابط، وأخرى معارض، وعندي هوية تقربني من الله، كل هوية من هوياتي تحمل صورتي، ومن أكون، وأينما أكون، لكنني نسيت بين زخم الصفات، اسمي الأول الذي أتيت به، ومكاني الذي كنت فيه.. بمحفظتي أكثر من هوية، وكل من

كان يقلبها وهي بجانب جثتي، يمزق واحدة من هوياتي، حتى عدت بلا اسم، ودون أن يعرفني أحد.

****

بين ضباب التغيير

في البداية البعيدة، قبل أكثر من ثلاثين عاماً، كنت أمعن بنار التنور الفخاري التي تأكل بلا شبع سعف النخيل اليابس، أرقب عبر كومات ذلك السعف المطروح قرب التنور الفئران وهي تهرب من تحته حينما كانت أمي تسحبه حيث نهايته، ما انتظره هو الخبزة الأولى التي ستخرج ساخنة ويخرج من فقاعاتها البخار، أنتظرها كأني القدر وهو يرقب هدفه. لكن أمي قد غيّرت مجرى ما كنت أنتظر، ونحتت في جدران ذاكرتي مقولة لم أشأ أبداً أن أضعها بميزان أي منطق. ما زلت أبتسم أمام تلك اللحظة التي سمعت فيها تلك المقولة، وأبتسمُ في كل مكتبة أمرُّ منها حينما أتذكر. غير أن الانكسار الذي أجده في بساطة أناس من لم يعيشوا زمن الكهرباء، والنوم عند انطفاء آخر جمرة في الموقد، أجده بداخلي أمام أولئك، والحاجز الذي يفصلني عنهم هو حاجز قوة لديهم، لأني لست بمؤمن بما يقولوه، وأني بمنظورهم ضائع وبلا نية توجهني نحو هدف. فأستوعبهم كما لو كانوا أطفالاً لا يعون ما الحرية، والتغيّر العالمي، والثورات وأمريكا. الحذر الذي كنت استخدمه في مسك حافة قرص الخبز الساخن، لم أجد أمي تستخدمه حينما أخذت مني الخبزة، بل وقالت بنفس العزيمة: لا تأكل أول خبزة تخرج من التنور، فذلك يؤدي لموت زوجتك. حينها كان عمري لم يصل

أصلاً لعشرة أعوام، وما فكرت فيه بوقتها، كان الخبزة الثانية وليس زوجتي. أما ما قالته، فقد صار نظرية انتهجتها لزمن، ولحين وصولي لضفة المراهقة، وقد صرت أفكر بزوجتي أكثر من قطعة الخبز. ثم وفي مقطوعة حكمة جديدة استخرجتها أمي أيضاً من دفتر الماضي المجهول، بأن من يجد في قدح الشاي خاصته ملعقتين، فإنه سيتزوج امرأتين. المقولة الأولى، زائداً هذه الجديدة، والكثير مما سمعت من طرائق طقوس واعتقاد، كان استيراداً من زمنٍ اختفى بين ضباب التغيير، واكتشاف طرائق طقوس جديدة نحاول العبور بواسطتها لزمنٍ آخر، سنقول فيه ما يثير السخرية لغيرنا، وربما سأحكي ما يجعلني مؤمناً فيه لأحد فيأخذني على قدر عقلي، ثم يصمت دون مناقشتي ويدوّن بعد سنين إيماني على أنه كان محض اعتقاد تخطيت به الزمن، كما تخطت أمي والآخرون أزمانهم فيما اعتقدوا. إلى الآن لم تمُت زوجتي الأولى، ولا تغار من الثانية، لأني لم أتزوج في الأصل.

****

قصة الدب الكبير

(عامٌ مضى)

من الأعلى، شاهدتها عند بداية السلم المتحرك وهي ترتفع بهدوء مع السلالم وتتجه نحوي. كانت الأجمل كما عهدتها عيناي، وكل جوارحي. تحمل طفلاً جميلاً يشبهها بجنون، طفلاً بعمر العام الذي انقضى وذهب كلُّ طريقه في الحياة، ولم يعد أحدنا يدري بأخبار الآخر، وأين هو، أو كيف هو الآن. عام مضى وهي نفسها هي تلك الجميلة. رأيتها تقترب صاعدة عبر السلم نحوي، تبتسم وتوزع أنظارها بيني وبين الطفل هامسةً بإذنه وتشير إلي. كنت أدري أنها تخبره عني، وتريد لفت أنظاره التائهة في صخب المكان وكثرة المتبضعين والأضواء والألوان. ثم نجحت حينما أدارت رأسه الصغير بإصبعها المضيء، وبنفس الإصبع أشارت إليّ وهي تبتسم، تقول له: انظر أمامك في الأعلى حيث نقترب. أما أنا فقد كنت أبتسم أيضاً، لأني أراها وقد صارت الأجمل، بعد عام أفل دون أن نلتقي، ولا حتى أن نودع بعضنا. كنت أبتسم لأني لم أجد غير ذلك كما لو أنّ عاصفة بلاهةٍ كونية ضربتني، ولأني أدري بأنّ لا أحد يراني أبتسم.

كان الطفل يمعن بوجهي، برأسي الكبير، بيديّ الناعمتين. وكان خليطاً من الرعب والدهشة والاكتشاف يحكمون بقبضاتهم عليه، ويخرجون من

عينيه اللتين تشبهان عيني أمه علامات استفهام كثيرة. بينما كنت أنا أنجز واجبي نحوه، ولا أكثر. أحمله، لكن بشعور غير كل طفل حملته وأحمله كل يوم، أشعر من بين حاجز الفرو الناعم نعومته، حرارته، الجاذبية الغريبة التي تباعد بيننا تارة وتقربنا تارة حد إننا ربما كنا بيوم شيئاً واحداً، شيئاً لا يمكن لكل قوانين الحياة أن تباعد بيننا، إلا إذا تكسرنا وصرنا هشيماً في مهب الافتراق. ولدقائق جميلة، وجدته يبعد عنه هالات الرعب والدهشة، ويحتفظ لنفسه متعة الاكتشاف بلمسه أنفي الكبير، ويطلق لأمه حينما التفت إليها ضحكة لكم أسعدتها، ثم أخرجت من حقيبتها هاتفاً بشاشة كبيرة تظهر عليها قطة ذهبية صغيرة بعينين زرقاوين، وطلبت مني أن تلتقط لنا صورة، كانت تقف أمامي، بقربي جداً وهي ترفع إلى الأعلى هاتفها، بينما كان طفلها يمسك بأنفي، وأنا مستغرق بشعرها، وأحاول ألا يأخذني الإغماء، من كل شيء أمامي، هي، الطفل، السلم المتحرك القادم نحوي. ثم يكتشف الجميع، من يكون ذلك الدب الكبير.

....

(عامٌ آخر)

ما زلت أفكر، وقد مرَّ شهر على طلتها تلك وهي تحمل طفلها. مرَّ شهر وأنا أحاول تجميع شتاتي، وأفكر دوماً، بل أتمنى ألا يظهر كل ذلك التشتت في هاتفها، تمنيتُ حقاً بأن أكون الدب الكبير، الناعم، الذي يتحرك ببلاهة، أو

ببراءة بين الزبائن، وألّا تمعن هي جيداً، بعد كل فترة ملل وهي تقلب صور جوالها، وتكتشف من عيني إني كنت أستغرق بقفاها، أشاهد امتداد يدها اللا متناهي وهي تمدها نحو السماء من أجل صورة ذكرى بمركز تسوق كبير، تمعن جيداً لعينيّ وهما يتماوجان في حيرة من أكون، وأنا الدب، أو المحب الذي أنفق السنوات العذاب مع حبيبة، المحب الذي أراد أن يثبت غلط فرضيات عاشق خاسر حينما قال: إن المرأة الشرقية بإمكانها أن تتحدى الكون كله، إلا الزمن، فهو الهاجس المخيف الذي يسطو عليها كل حين، وكلما منحها عاماً آخر من حياتها، تمالكها الخوف في أنها تدنو من النهاية ولم تحقق شيئاً، وأخذ منها شيئاً مقابل ذلك المنح، ولن تبالي أبداً إذا تقدم لها أحد للزواج منها، أي أحد يعرفها أو لا تعرفه أو تجهله، لن تبالي في هجر حبيبها من أجل أخطر مجازفة في حياتها.

أردتُ برهنة العكس وإثبات أن الحب مقدس، ولن يتجاوزه إلا من ألحدَ به، أو من لم يتذوق حلاوة لوعته. لكنها أثبتت بطريقة المنهج العلمي الذي درسناه معاً، وأن خريج كلية العلوم، مثلي ومثلها، لم يعد له وجود، وأنّ الفيزياء التي درسناها سوية، لم تفسر بأي حال أي معنى للحب بطريقة العلم، وكل الثقوب السوداء، خصائص المعادن، درجات الحرارة، ونظريات الضوء هي محض افتراضات في عالم الواقع، واقع أن يتذوق من أمضى أربعة أعوام حلاوة تعلّمه، فيكون سعيداً، ثم يتزوج التي يحبها، ولتذهب كل الطبيعة إلى الجحيم إذا لم يكن ذلك. هي أثبتت ترهات حبّ ذلك الخاسر،

واختصرت كل المسافات باعتذار هادئ متحضر: إنها ليست بالمستعدة أن تمضي عليها مسافات الزمن وأنا بلا عمل، بينما ثمة عروض مغرية هي قريبة منها، ومن الغباء التضحية بها من أجل حبٍّ يقاسي الزمن الصعب. مرّ زمن وأنا بداخل ثقبي الأسود، شهر، شهور، عام وأكثر حتى رأيتها مع طفلها الجميل الذي يشبهها بمركز التسوق الكبير، بداخل الدب الذي يبهج الصغار، يلتقط معه الكثير صوراً للذكرى، في مهنة ألغت وجودي بالتمام والكمال، واحتجزتني بجسد دب كبير، بُنّي اللون ناعم الفرو مبتسماً بغباء. مرّ عام آخر ولم أرَها مطلقاً، ولست أدري، أكنت أرغب في رؤياها مرة أخرى، أم إن الدب الذي يعتريني يريدها هي، يريدها أن تقترب أكثر، تأخذ الصور الكثيرة، تمسك يده دون أن تشعر بحرارته. ولا تدري، من يكون ذلك الدب الكبير.

....

(عامٌ ثالثٌ)

قلت فيما بعد، بأني برأت، والزمن قد تكفل بطمر الذكريات في حوادث أخرى، حوادث مضحكة وأخرى غير ذلك، أذكر منها فتاة الآداب، حينما رمتها الفلسفة عليّ وأرادت أن تعرف أكنت فتاةً أم رجلاً. ألحّت كثيراً دون أن تدري بأني ممنوع من التكلم مع الزبائن، وأن جلّ ما أعمله تلك الحركات الساذجة مع المتبضعين وأطفالهم. كان سؤالها للمرة الأولى طبيعياً: أأنت ولد أم بنت؟.

أجبتها في إشارة بإصبعي: انظري إلى عيني. لكنها لم تكن متيقنة، وتشككت فيمن أكون بعد كثر المحاولات وهي تحدق من خلال فتحتي عيني الدب. وفي المرة الثانية: أجبتها بأني شاب بإيماءة من رأسي بعد أن افترضت بأني كذلك. ولم تصدق. في الثالثة، جازفتُ وأعطيتها رقم هاتفي بورقة صغيرة ألصقتها على دمية وقلت لها: العاشرة مساء، ستعرفين من يكون ذلك الدب الكبير. كانت بلا عمل مثلي، واكتشفت منها، أنّ الآداب كما العلوم، تخرّج الضائعين وتتركهم في الشوارع يبحثون عن أي عمل، تخرجهم سائقي تاكسيات، حراس مبانٍ ليليين، عمال بناء، أو تركنهم في المقاهي مخدرين بألعاب الهواتف ودخان النارجيلة. ثم اختفت كما ظهرت، واعتدت غيابها الطبيعي حتى لاح لي الوجه الذي أحببته منذ سبعة أعوام، مع ولد صغير بإمكانه المشي، تغير وصار أجمل. كان منبهراً بالسلّم الكهربائي، ويمسك يد أمه بقوة وهما يقتربان مني، مثل أول مرة، يقتربان ويرتفعان نحوي. كان كل شيء تغير فيهما نحو الأجمل، إلا أنا مازلت كما قالت هي وهي تخرج من حقيبتها هاتفاً كبيراً ليس كذاك الذي التقطت فيه الصورة الأولى: إنك الوحيد الذي بيننا لم يتغير. فحركت رأسي كمتفق مع رأيها. بينما كان رأسي الحقيقي غارقاً في العتمة وبدأت لا أطيق الهواء الضئيل الداخل عبر فتحات رأس الدب الغبي. وكأول مرة، أعادت تدوير الزمن بصورة معها، كنت أحمل الطفل، وتقف هي بجواري كثيراً. كثيراً حدَّ إن ذاكرتي كلها استنفرت وبعثت بي إلى أماكن كثيرة أسرفنا فيها الكثير

من الزمن وأحالته إلى عمر أمده أربعة أعوام فانيات. وليت الأمر بقي على حاله. وبقيت هي تلتقط الصور إلى آخر العمر، أرتضي فيه أن أكون الدب حتى لو بلغت من العمر ألف سنة. فقد أراد طفلها أن أنتزع الرأس ويثبت لأمه أن من يقف معها ليس دباً حقيقياً، إنه مجرد شخص غريب، شخص يعمل هنا، شخص يمثل ولا أحد يعرف من هو. صار يبكي، يصرخ، وعلم الجميع أنه يريد رأس الدب، وأنا أدري أنّ رأسي سيكون لأمه بعده. وتكتشف بالطبع، من يكون ذلك الدب الكبير.

....

(العام الأخير)

وما آن يبلسم النسيان ذاكرتي، تعود كما لو أنها تدري، إن خلف الدمية الكبيرة تلك، أنا. ولولا اقتناع الطفل في العام الماضي بأنني أخفي حقنة للأطفال المشاكسين، ما سكت وتركني وعلى خديه الدموع. هذه المرة عاد أكبر بنسبة قليلة كأعوامه. تعود هي لتثير كل الرماد، رماد حبٍّ كلما تقادمَ تكاثفت خمرته بين أزقة الدماغ، وزوايا القلب، ويحيلني هائماً لا يجيد قراءة علامات الدروب، وأنّ النسيان الذي يزيدها ألقاً، يزيدني قتامة. عادت بعد عام أيضاً، عادت لتلقط صورة ذكرى جديدة، وكما أول مرة، وثاني مرة، قالت لي بأن أمنيتها أن أكون أيقونة الذكرى لطفلها الوحيد. الصورتان ما تزالان كما هما، هي تغيرت قليلاً، وصارت ممتلئة بعض الشيء. الطفل ما

زال ينمو، بينما أبدلت إدارة مركز التسوق الدب بدبٍّ آخر يشبهه، مع ابتسامة أكبر طفت على وجهه، وعنده جيب للهاتف. وبقيتُ أنا بداخله، لا أحد يدري إن كنت قد تغيرت أو لا، ولم أجد أية وظيفة إلى الآن سوى التوغل كل يوم بزي دمية بحجمي.

في اللحظة تلك، رفعت يدها لتلتقط الصورة الثالثة عبر أربعة أعوام. رنَّ هاتفانا معاً كنت أشاهد رسالة على شاشتها، مع نغمة لمواء هادئ لقطةٍ، وكان هاتفي يشعرني باهتزازه أولاً، بينما النغمة قد غمرها الفراء السميك الجديد. وهي تقرأ رسالتها، انتشرت على وجهها بسمة ذكّرتني بكثير من الأيام الراحلة، ثم سحبتُ هاتفي من جيبي لأقرأ، واكتشف سبب ضحكتها في خبر نصي يقول: أنتم يا طلاب كلية العلوم، دورة الأمل الجديد، نخبركم بلقاء أعددناه لكم في نادي الكلية بعد فراق دام أربعة أعوام، نريد معرفة ما صرتم أيها الأشقياء، ونريد أيضاً بملتقاكم، أن ترتدوا زي الوظيفة التي رست بكم الأيام عليها.

هل سأذهب؟ وما الداعي من ذلك اللقاء وأكثرنا ما زال عند النقطة صفر، لم ينطلق إلى الحياة الجديدة، وما زال متدلٍّ من حبل الذكريات الجميلة كما لو أنه لا يريد مغادرتها. الفرق جلي بين أن تكون بعالم مليء بالأحلام، وعالم قاحل لا حق لأي أحد فيه بأن يتمنى، ويحقق ما تمنى، ويمضي في الحياة إلى النهاية السعيدة.

كانت أزياء الوظائف قد صيّرت الكثير منا إلى أشخاص نلتقيهم أول مرة؛ نغم المخبولة تحققت نبوءتها بمصير ربة البيت ذات الثوب المتسخ والمبلل ليلاً ونهاراً، مع تسريحة شعر عشوائية تشهد الصباحات الماضية كيف كانت العناية الخاصة به تحيل صاحبته إلى ملكة. نمير وجد مهنته ممتازة كما قال، وأرانا مخدّته التي يجيد قيادتها في أكثر الأماكن ضجيجاً في العالم. سلوى مدرّسة خصوصية في المنزل، رائد محاضر مجاني، جلال حصل على لجوء بألمانيا ولن يعود، أنور صار مساعد لبّاخ واعد، إسراء تزوجت وتوظفت عند ثلاثة أطفال. أما أنا، فقد وجدت أنّ الأوان قد حان لأن تعرف تلك التي جاءت بزيها الجامعي، والتي مضت عبر الزمن بدراسة العلوم إلى ما لا نهاية، وستكون الجامعية الأبدية المحبوبة، جاءت مع طفلها الذي ركض إليّ بسعادة أسطورية، حينما رآني ألبس زي مهنتي، بينما هي بقيت مستقرة بمكانها، تحاول اختراق حاجز عيني الدمية الكبيرة، وتعرف ما قصة ذلك الدب الكبير.

****

الدنيا بالألوان

بماضٍ بعيد، عند زمن الطفولة والصبا، كنت أتصور بأنّ الحياة قبل أن أكون كانت بدون ألوان الوجود الكثيرة، وأنّ السواد والبياض كانا الوحيدين من يلونان الوجود، الشجر، والسماء والسحاب والوجوه. ولست أدري لمَ لم أسأل، ولِمَ لمْ أحاول الاكتشاف بطريقة ما، وهل حقاً أنّ الحياة كانت بلونين قبل أن أكون. ربما، حينما رأيت أول صورة لي، كانت صورة شمسية التقطها مصور أدخل رأسه بقطة قماش كانت تشبه بنطالاً أو بيجامة مقلمة ذات قماش البازا الشهير في ذلك الزمن، ولا أدري ما الذي فعله هناك، في داخل كاميرته ذات الثلاثة أرجل، تحت أول عمارة لم يسكنها غير المصريين في المدينة. المصور أخرجَ صورتي التي لم أكن أنا فيها، بل صورة لطفل بلونين، أسود وأبيض. كان يشاهد بنظرات غريبة المصور الأصلع، وهو يولج برأسه في تلك الآلة، يمعن كثيراً حتى تعرج حاجباه من شدة الاستفهام، وبقي صامتاً كما كان في صورته. لم أسأل ما كانت ألوان الدنيا من قبل، وهل كانت حقاً بلونين كما صورتي الشمسية المغشّاة؟ حتى حان الوقت لولدي، سألني وأفلت من نفسه حيرة الاستفهام، وعلى العكس مني حينما كنت ألوك بالسؤال فلا أسأل ولا أنتظر مجيباً. قال لي: هل كانت الحياة قبل أن أكون بالأسود والأبيض؟. فتذكرت الذي تذكرت من بين

صورة قديمة مغشّاة، لذلك الطفل الصامت الحبيس في صورة الزمن البعيد، الذي لم يسأل، أو لم يبادره أحد بالحديث عن الحياة بكل ألوانها، ويشرح له لو ببساطة الأطفال إن الحياة لا يمكن أن تكون بلونين، أو يقولون له انظر إلى الشجر والسماء والورد وستعرف إجابة السؤال. سألني كما لو أنه ورث مني السؤال القديم، وتذكرت ما تذكرت صورتي العتيقة وهي ما تزال ملتصقة ببطاقتي الشخصية الأولى، حينما قلت له كمن يريد أن يشرح لذلك الطفل القديم، فيرخي تقطيبة حاجبيه منذ أعوام كثيرة، بأن الحياة _يا ولدي _مذ كانت ملونة، وأنها لم تكن أبداً بلونين.

****

الزبون

" لا يتطلب الأمر اعتذاراً، وأنّ العمل الشريف هو المبدأ الذي تظهر علاماته في اليدين اتساخاً، وفي الجسد تعباً، وفي البيت بسمة نقية تتجلى في عيون الصغار". هكذا قال حينما دخل أحدهم إلى محله وفي يده المغطاة ببقع سوداء هاتف من النوع الجيد، متطور وشاشته جميلة. وواقع الأمر كان الهاتف هو نوكيا من نوع **1110** ، الهاتف الصغير ذو الشاشة البيضاء التي أضفت ميزة على سابقه من نوع نوكيا **1100** . لكن الجهاز الجديد جاء بمفاجأة محزنة وبصورة عطل، كانت الشاشة البيضاء الجميلة تومض بشكل مستمر، ولا يمكن للمتصل أن يجري به أي مكالمة. قال الزبون: "لا أخفيك؛ عائلتي قد حزنت كثيراً لتلعقها بهذا الجهاز الجديد، لكنه خيب آمالهم بعطل لم يكن في البال. طفلتي الصغيرة ذات العامين تفتقد نغمة محببة فيه". أما مصلح الهواتف، الذي يدري بأن زبونه ملمع أحذية في نهاية السوق، وإن بعضاً من طموحه قد تحقق بامتلاك هاتف لم يكن فيه سوى ثلاثة أرقام، رقم زوجته التي لم تكن تدري بأن الاتصال بالجهاز يكلف فلوساً، ولم تكن تقتنع بأن بطاقة الشحن التي فيها أرقام التعبئة هي من يسمح لها بالاتصال، فكانت تضع من عندها أرقاماً بعدد أرقام بطاقات لشحن، وحصل مرة أن تمت التعبئة بنجاح، لكن تلك المرة كانت الأخيرة

طبعاً رغم محاولاتها الكثيرة التي انتهت بحجز الشريحة من شركة الجوال لمدة يومين. أما الرقم الثاني فقد كان لأخيه الذي يحب أن يستمع نغمة جهازه، فاتفق مع أخيه بالإكثار من الاتصال به لا من أجل المحادثة المكلفة، إنما من أجل ما أخبره به، والرقم الثالث كان لصديق له في المهنة، كان مجرد رقم لا أكثر، لأنهما كانا يلتقيان مع بعض طيلة النهار في مكان عملهما. كان الهاتف متسخاً أيضاً، وعليه بقع من يد صاحبه الذي اعتذر عن ذلك. وما فاجأ صاحب المحل، أن الزبون قد جلس على الأرض بالرغم من وجود أربعة كراسي معدة للزبائن، وظن بأن سبب ذلك هو ألا يتسخ كرسي منها بعد جلوسه عليه. إلا أن الزبون قد علل ذلك باعتياده الجلوس منخفضاً عن الناس، وأنّ رأسه قد اعتاد على النظر إلى كل شيء مرتفع عنه بحكم مهنته، كل شيء، وأي شخص. بعد ذلك حصل على موعد إلى الغد، والذي سيتسلم فيه هاتفه وقد عادت إليه عافيته، أعاد فعلته وحاول أن يجلس على الأرض، إلا أن المصلح منعه وقال له: أنا وأنت، والجميع، حينما جئنا في اليوم الأول لهذا العالم، كنا ضعفاء، وبلا مهنة أو مال، وسنتساوى أيضاً في اليوم الأخير أيضاً، حينما نودع هذا العالم ونكون تحته بنفس الضعف، بلا مهنة أو مال. وعلى طول خط الحياة، ما بين اليوم الأول واليوم الأخير، تناصفُنا الحياة على أننا نتساوى في الوجود، إلا إذا كنا لا نريد ذلك، فمنهم من يريد النزول إلى القاع، ومنهم من يحب أن يراه أولئك، كما لو أنهم فعلاً عند علوٍ ما.

الأنثى المسخ

كان يعلم بأن النوم قد أخذه عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً، ولم يحلم خلال غفوته أبداً. ومتأكد جداً بأنه لم يحلم ولا يحلم الآن، وهو بكل الحقيقة الصارمة موجود ويتلمس أماكن جسده بكل يقين، وباهتمام شديد، وبمراجعة دقيقة في كل مرة يلمس فيها عضواً من أعضاء جسده. ففي الليلة السابقة. وقبل أن ينام كان وبكل ذاكرته القوية يستمتع بعالمه الافتراضي، على هيئة صفحة تواصل اجتماعي يرتبط فيه بكل العالم، بحقيقته وزيفه. وقبل ذلك بأشهر، حينما أرسل صديق له صورة قيل إنها نالت جائزة أفضل رسم كاريكاتيري في وقتها، صورة لكلب يجلس على كرسي وأمامه جهاز حاسوب يتصفح فيه الإنترنت، بينما يجلس كلب آخر بقربه يقول له: في عالم الإنترنت، لا أحد يدري بأنك كلب. أما هو، فلا أحد يدري وفق تلك الصورة التي ألهمته الكذبة بأنه ذكر، ولا أحد يعرف ما عمره، أو سنه أو أي تفصيلة صغيرة عنه، إنه الفتاة الجميلة ذات العشرين عاماً، الرشيقة المثقفة التي ألهمت الكثير من متابعيها على هضم الساعات كما لو أنها ثوانٍ مسرعة في عالم التواصل الافتراضي. لم تكن تبخل في إجابة أي مراسل يكشف لها أسرار حبه، وإعجابه المفرط بسردها للحياة الشفيفة. تعرّف، أو تعرفت على رجل ستيني وحيد، هاجر أولاده إلى خارج

البلاد، وماتت زوجته مبكراً، وهو الآن يكسر العقود الستة في حبٍّ جديد له، أو لها. تراسل مع خمسيني يصر بأن الشباب في الرّوح مهما تكاثرت الأعوام على رأس صاحبها. سهر، أو سهرت مع أربعيني، ما زال يشاهد أعوام العنفوان قريبة جداً منه، وبإمكانه الغرف منها من أجل إمتاع من تراسله بتجارب الحبّ الكثيرة. وتشاطر، أو تشاطرت أسرار ثلاثيني حزين، لم يتزوج إلى الآن وهو يبحث عمن تحبه ولعلّه اقترب ممن يبحث عنها. وعن حكايات الصديقات وأسرارهن، كان يجد نفسه تلك السعيدة التي لديها وقت كله مع من تتحدث إليهن، وتخترع الحلول السحرية من أجل كسب أي صديقة لا تدري بأن في عالم الإنترنت، لا يعلم بمن تحدثه، أو يحدثها. وفي صباحٍ ما، كان يدرك بأنه نام جيداً، عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً، بعد سهرة حديث وتبادل أسرار مع جديدة، كان يتلمس جسده كما لو أنه لم يره من قبل، جسد فتاة يعرفها جيداً، تلك التي كان يصفها لكل أحد أو واحدة بعالم الافتراض، الفاتنة الرشيقة الذكية، ثم قفز من سريره إلى المرآة كي يرى وجه تلك الفتاة، وبدأ يتلمس بجنون أعضاء جسده الجديدة، شعره الذهبي المسدل على ظهره، حاجبيه المنقوشين بمهارة فائقة. كان يجد الجمال مطلقاً في تفاصيله الجديدة، لكنه أبداً لم يكن يستوعبه، ولا يفكر بقبوله أصلاً، بدا عليه مسخاً حقيقياً قد أحكم قبضته، ولا يعرف كيف سيتخلص منه.

دولاب الزمن

(إلى عامر وإبراهيم)

1

لم أكن أدري ما ضالتي، سوى أني خرجت محاولاً نسيان شكل جدران غرفتي، ألوانها الباهتة، السقف الذي يحاول كل مرة الإطباق عليّ وأنا أستغرق بفضائه، الرائحة الخانقة، صرير الباب الكئيب. خرجت على غير هدىً علني ألتقي بصديق قذفته الصدف إلى الطرقات، أحاول معه لوك العمر، الذكريات، أجترُّ معه موقفاً مضحكاً أخدّر به بعضاً من تيهي، أو حتى موقفاً مبكياً أجرره إلى الأزمنة التي تعفنت من الرتابة، أو موقفاً مخزياً، سخيفاً، أي شيء أمزق به الوقت. كانت الدروب مليئة بالأطفال والصبية المحتفلين، ذكّرتني ملابسهم الجديدة بأن اليوم هو العيد، وتذكرت ما تذكرت، طفولة كان همها الأول السعادة، كما لو أنها تدري بأن الأشياء كلما كانت صغيرة، كانت تكفي لأن تعيشَ مثل فراشة تستدل بجناحيها أماكن الزهور. كنت أمشي عكس اتجاههم وكأنهم نحلات صغيرات منطلقة إلى الحدائق، حتى رمتني قدماي على ساحة العاب بدائية فيها ثلاثة أراجيح صغيرة، ودولاب هواء به أربعة مقاعد لا أكثر، وكان الأطفال الذي يستقلونها سعداء، سعداء جداً حدّ الضحك بجنون مع أن تلك اللعبة لم تكن ترتفع بهم حتى لمترين.

توقفت عند تلك اللعبة وبي قناعة أن أركب بواحد من مقاعدها، أريد أن أدور، وتدور بي الأشياء، الأزمنة، الأماكن، الناس، أريد أن يدور بي هذا الكون كله. فلم أكترث لرفض العامل لطلبي، ولم أعِ ما كان بضحكته الساخرة، سوى أني تمسكت بمقعد وقلت له: امضِ. لما استسلمَ، أدار بالعكس اللعبة حتى صرخت به لمَ يفعل ذلك؟ قال لي: وهل يوجد ما يمشي معي في اتجاهه الصحيح؟ قالها بعصبية أخمدت انفعالي لما فعله. واستسلمت للاتجاه المعاكس، صرت لا أقوى على فتح عيني بينما أخذ الغثيان يسيطر علي. وجدت نفسي في نادي الكلية وفي يدي كتاب الفلسفة الحديثة، يجلس أمامي عامر، الصديق الأول الذي تعرفت به، كان صامتاً ويمسك بيده قدح شاي ساخن، يرتدي قمصلته الجلدية ذات اللون الليلي. سألته: أين نحن يا عامر؟ ضحك وقال: الفلسفة مصنع للمجانين. لكنني أكدت سؤالي عليه بصرامة بعد أن أمسكت بياقة قمصلته: لماذا نحن هنا؟ إننا في سن الأربعين، وقد ركضت بنا السنون كما لو أنها سعيد عويطة. قال: لا أفهم ما تقول، في ذلك الزمن سأكون إنساناً ذو شأن، صحفي أو أديب، وستكون اهتماماتي زواج ولدي البكر. التفتُ إلى كلّ الجهات، كنت أرى الكثير ممن أعرفهن وأعرفهم، طالبات رائعات، شباب لم يموتوا بعد بحروب البلاد العالمية والأهلية. أشاهد قيس مع أني أذكر أنه حصل على صلعة لامعة في رأسه. علي جبار صار أستاذاً بمقام دكتور في الجامعة، لكنه أمامي طالب مثلي ومثل عامر وقيس. ثم عدت لعامر وسألته: ما الذي

يجري يا عامر؟ فغطت إجابته صرخات عامل اللعبة بأن الوقت انتهى، لكنني رأيت سبابته وهي تشير إلى مقدم الفتاة التي أحبّ، كانت مبتسمة وتتقدم نحونا، ثم حجب وجه عامل دولاب الهواء الأسود وجهها المضيء، وهو يطلب مني النزول. وترك الأطفال يهنؤون باليوم الأخير من العيد.

....

2

لم أتنازل أبداً، واحتملت الغثيان ثمناً وجدت نفسي بعد أن دفعته بباب المعظم، في كراجه الغَاصّ بالطلاب والطالبات، رأيت إبراهيم صالح قادماً نحوي وفي وجهه بسمة لا معنى لها. سألته لو في وده الذهاب إلى المنزل. قال: قد أنفقت آخر ما بجيبي على قطعة حلوى رائعة مثل طالبات كلية الآداب، حلوة مثل حبيبتي التي خسرتها بالأمس، وحبيبتي التي سأخسرها غداً. ولما حكيت له بأنه سيتزوج في العقد الرابع من عمره صعق بكهرباء النبوءة وقال لي: كفاني الله شرك. سأذهب معك لتدفع لي الأجرة، ولا تحدثني عن ترهاتك يا مخبول. وعبر المسافات، كان يلقي على مسامعي قصيدة حبٍّ شجية، ذبل فيها الضوء، وابتدأ بها الجميع بالموت. فقاطعته إن كان يتحدث عن زمن مضى، أو عن زمنٍ آتٍ. صمت إبراهيم وغادرت من فيه بسمة اللا معنى، وفهمت منه بأنّ المفلس حقاً، في القافلة أمين، حينما لم يعد هنالك من أمان. حكيت له عن الدولاب الذي تدور بي، وأننا الآن ندور بالماضي

الجميل. قال وهو يفرج عن أنظاره إلى المسافات المنقطعة: أحاول أن أفهم، لمَ الماضي دوماً جميل؟! وقبل أن يرحل صرّح بأنّه يرغب بركوب ذلك الدولاب، وأنّه يصدقني بوجوده. كان الظلام يدخل تارة ويرحل في أخرى، وجدت نفسي بعدما انقشع أحمل أمر تسريحي من الجيش، وأنّ عاماً ونصف انصرما بطرفة عين، رأيت فتحة صغيرة يتسرب منها الزمن مثل دخان سيجارة، حاولت جاداً البحث عن أي خرقة أسدُّ بها ذلك الثقب، وضعت يدي آملاً التوقف عند مسافة قريبة من الماضي، لكن الزمن كان يخترق يدي ويخرج من تلك الفتحة، يتسرب بحرية، لم يكن كالضوء أو الهواء، كان شكله زئبقياً يغير كلما تسرب من أشكالنا، فكنت أرى التبدلات التي تحصل لي، وعلى عامر وإبراهيم. حاولت أن أكون الخارق الذي انتصر على الزمن، وأن أوقف ألوانه التي تبهت، أوقف تناقصه، بيد أنّ، ومرة أخرى أوقف عامل الدولاب لعبته وقال لي: هذه المرة سأحركه باتجاهه الطبيعي، ولا أحد يدري ما ستكون نهايته.

****

البرنامج

قد تلقى الكثير من الرسائل، بدت أغلبها متشابهة في السؤال، ومختلفة عن أي شخصية سيلتقي في الحلقات القادمة في برنامجه، رسائل من كل مكان في العالم، وبلغات كثيرة لم يكن يعرف ما قد كتب المرسلون فيها، إلا أنّه يعرف مبدئياً بأن محتواها كان مطلباً بلقاء الشخصية التي يرغب فيها أولئك المرسلون، وبرغم التهديدات التي تلقاها عبر بعض المكاتيب، أو عبر هاتفه، لكنه لم يكن ليفكر أن يتنازل عن الأمر، برغم بدايته المخيفة التي أصابته بمرض السكري، لم يكن ليتفكر بترك المغامرة وواصل حتى آخر لحظة، وتقبّلَ النهاية كما لو أنّه منتصر، وأقرُ بأنّ الحقيقة لا يمكن أن تأتي مجاناً، فالعالم الذي نعيشه ليس هو نفسه الذي جرى فيه ما جرى. ففي أول دقيقتين من الحلقة الأولى من برنامجه قال: إنّ العالم الذي نعيشه فيه نسبة الحقيقة ضئيلة جداً، لكننا نمارس فيه رغباتنا؛ فنحبُّ ونتزوج ونعمل ونقرأ ونركض كما لو كنا نعيش الحقيقة، غير أننا أيها السادة، مجرد افتراضات لعالم آخر، لا نعرف ما يريد، ونبدو لديه كما لو أننا دمى، كالدمى التي نشتريها لأطفالنا. فاتجهت الكاميرا حيث الجهة التي أدار وجهه لضيفه الأول، والذي أتى من أجل حكي القصة الأخرى، وقول الحقيقة بنسبة ما. قال المقدم له: قد قدمنا النصح للكثير بأنّ مَن يسمح لهم بالمشاهدة هم

الأصحاء. وأول سؤال نوجهه لك هو: أنّك ما زلتَ إلى الآن مدار البحث في عالمٍ ما بعدك كما لو أنك ما زلتَ حيّاً، غير أنّكَ ما زلت كما أنت... متشنجٌ وتنتظر معركةً ما. فأجاب الضيف بعدما بدت على تضاريس وجهه المتكدر بسمة نادرة التقطتها الكاميرات بفضول مطلق وهو يقول: لا تقلق، فالموتى لا يقاتلون، ومع أنني أبدو هتلر الذي سرقت أمريكا كل اكتشافاته وقيدتها في سجل تاريخها، إلا أنني لم أكن لأقبل أن أظهر إلا لأجلِ قولٍ وجهٍ معينٍ من الحقيقة. برغم ما أبدو، أنا مجرد جزء من الحرب العالمية المستمرة.

-الحرب العالمية المستمرة؟ تساءل مقدم البرنامج، وقال بأنّ الجميع يعرف بثمّة حربٍ عالميةٍ أولى قد حصلت، وأعقبتها ثانية، والكثير من الحروب قد حصلت بعدهما، لكنّه لم يسمع بيومٍ ما بحربٍ عالميةٍ كتلك التي ذكرها. فقال له هتلر بأنه هو الآخر لم يكن يدرك ذلك إلا بعد حلول النهاية، وأنه ولسوء حظه، كان من الفريق العسكري العالمي، الذي ينفذ رغبات العالم المنظر المتواري عن عالمنا الفعلي هذا، قال: في الخفاء، في الأماكن التي لا يمكن لأحد أن يعرفها، يلتقون من أجل حياكة ما يلبسه الوجود الذي أنت فيه الآن، والذي كنت أنا فيه، حتى أنت، تبدو أنّك في مغامرتك هذه أنك تريد كشف الحقيقة المطلقة، لكنك في النهاية ستجد بأنك كنت مقتاداً من قبل أولئك إلى نهاية ما. أنا بالأصل عسكري في كلّ مكان كي

يشعروا الناس بالخوف، ثم يهيئون من ذلك الخوف جبهة فتبدأ الحرب كي يشاهدوا الموت بطرق جديدة مبتكرة.

- أتعني بأنك كنت غبياً لتقبل دور العسكري؟

- بالأصل، لم أكن أعرف ما هو دوري، لكنهم يصنعون بداخل العسكري الذي صنعوه بطلاً؛ فيذيقونه بعض النصر وبعض الحبّ والمشجعين، ثم ينهونه بعد انتهاء مهمته.

- برأيك، ماذا يريد أولئك المتحكمون؟

- في الحقيقة التي أراها، هم يبدون كما لو أنّهم غير موجودين، وهذا ما يريدونه، ولست أدري كم أنتجت مصانعهم إبطالاً منذ رحلت من الحياة، لكنني متيقن بأنهم أغبى مني بكثير.

كان قد استمر اللقاء ثلاثُ ساعاتٍ، قال المقدم في نهايته: بأنّ العالم المرئي الذي نحن نستشعر فيه، ونتذوق أطعمته كله قد شاهد اللقاء، وأن مصنع العالم المتحكم ما يزال ينتج أبطاله من أجل الحرب العالمية المستمرة، وسيلتقي عمّا قريب بشخصية جديدة آتية من الماضي، تركت آثاراً لها بزمنٍ ما، وستقول الحقيقة المعينة التي تراها، ثم أنهى برنامجه بخطابٍ إلى جمهور العالم كله في مَن يود بطرح أسئلةٍ ما، أو يترك تعليقاً في منصة برنامجه الإلكترونية، من أجل المزيد من الأفكار والرؤى.

ومن بين ملايين الرسائل، كان يجد الأسئلة الغبية منها والجيدة ملهمة في إدارة الحقيقة التي يعرضها، ولم يكن يتجاهل تلك التي كانت تقول له بأن

الجنون هو الآخر عنصر فعال في ذلك العالم الذي يتحدث عنه، أما آخرون؛ فقد طلبوا منه بالاستمرار من أجل المتعة الذاتية، وأنهم كما رأوا في برنامجه، يتمتعون كثيراً بقول حقائق أتت بعد فوات الأوان، أو ثمة وجود لحقائق حالية لا يمكن الوصول لها. والواقع، فقد وجد بأن الحقيقة التي تكلم بها ضيف الحلقة الماضية كانت تختلف بنوعها عن الحقيقة الجديدة التي ذكرها لينكولن، والذي عرض إصابته أمام المصرين وسكان الأرض كلها، والتي أودت به إلى النهاية، قال عنها: إنها ثمن زهيد جداً بالنسبة لي، لكن ما يحزنني هو سماعي منك بأن العالم الجديد يشيد بفكرتي لحرية البشر، مع أنّه يستعبد الجميع على حد سواء. في المساء، بينما كان يعد للقاء آخر، وعد فيه بأنّ الشخصية الآتية ستفسر ظواهر متغيرات أولئك المتحكمون، وربما من خلال من التقاهم، سيمسك طرف الخيط الذي سيوصله إلى من كان سببَ كلَّ هذا الحطام، ستعم الحرية وتنتهي الحروب، وسيشبع الجميع كما قال ماركس في إحدى الحلقات، بأنّ ما بهذا العالم من طعام يكفي لعشرة كرات أرضية أخرى، إلا أنّ الجوع هو الخدعة العظمى التي اكتشفها أولئك، بل وقبل أن يكتشفوا الحرب على أنها المعادلة الكونية التي بإمكانها أن تجعل مصير الأرض كلها بأيديهم. كان قد وجد رسالة من بين الكثير التي كان يقلبها، كأنما تذكره بالنهاية التي وافق على بنودها التي لم يطلع عليها، فقد وجد جزءاً جديداً من الحقيقة، وبأنّ كلاً من التفاهم، كانوا أجزاء بسيطة من الحقائق الكونية القديمة، وأنّه قد اكتشف بأنّ

نهايته هي واحدة من النهايات الجديدة التي قدمها أولئك المتحكمون، طريقة قول الحقيقة أمام الجميع وبوقتٍ واحد، وأنّه كان الفريسة الأولى التي قلبت صفحات الماضي من أجل عرضها بوسائل الحضارة التي صنعوها، وعلم في الدقائق الأخيرة من حياته، بأنّ ما تصرح به كل وسائل الحضارة تلك، ليس من أجل كشف الحقيقة، ولا نوع من الحرية التي يستمتع بها الجميع، إنما هي واحدة من طرائق العالم المتواري في إحكام قبضته علينا، وربما سيعود بيومٍ ما، بعد أن يبتكر أولئك طرقاً أخرى بحربهم العالمية المستمرة، فيقول بعضاً من الحقيقة، وقد فات موعد قولها.

****

توسيرام

بعد أربع ساعات فقط، سيموت، وهو لا يعلم أنه سيموت لسببٍ واحد، فعلاقته بالحياة لم تستدعِ التأمل بالموت والبحث عن فروقات بينهما، واعتياد الفقر دوماً يكلله بالفوز بنهاية الانتظار وقدوم المرتب البسيط الكافي لثلثي الشهر، هو لن يموت، بل سيُقتل بأربع رصاصات دوّى صداها كل شوارع الحي، وسمعها من تبقى في البيوت متمتمين مع أنفسهم بدعاء ومساعدة الله لمن تلقى تلك الطلقات، وآخرون قال بين جدران غرفهم بلعنة على من حمل ذاك السلاح وصوّبه. وبرغم مرور الوقت دون الانتباه لسرعته، بقي سؤاله عن ذلك المذاق الذي في فمه بدون ردٍّ أو شرح، فقد أزف الوقت تحت شجرة الخِروِع التي طالما كان يحتسي الشاي بقربها، لكن هذه الليلة بعد دخولها على المدينة ودخل كلٌّ مأواه خوفاً وتحسباً على من سيأتيه الدور فيها باغتيال. كانت ليلةً أخيرة بكل شيء، إلا بشرب قدح شاي أدمن عليه بعد كل عشاء، وعشاء اليوم الذي أشعل فمه ناراً بفعل الباذنجان المقلي الممزوج بمذاقي المرارة والحرارة، وببذور كثيرة شبهها ضاحكاً مع زوجته كأنها تلاميذ مدرسة وقت الخروج من فصلهم، عشاء استدعاه أكثر للتفكير باحتساء قدحين من الشاي، لإبعاد ما تعبّأ في حاسة تذوقه من طعام. فنادى بطلبه أن يُعد له الشاي وهو يشاهد التلفاز حيث

زوجته في المطبخ، لكنها جاءته بخبرٍ أنها قد نسيت إخباره بنفاد الشاي من العلبة، ولأنه الليل فقد أغلقت المحلات أبوابها منذ مغيب الشمس، وجاراه مَن على يمين منزله ويساره قد هُجّرا فتركا خلفهما منزلين يحيطهما الظلام والصمت المخيف، وضاعت إثر تهجيرهما ميزة كان أكثر ما يعتمد عليها هو؛ طرقة باب أحد الجارين العزيزين والطلب منهما ما يحتاجه. صار كمن يتفقد أماكن من منزله ما بين غرف ومطبخ، آملاً العثور على شيء حلو حتى لو تمرة منسية تحت أريكة، أو قطعة من حلوى استغنى عنها طفله، فحفظ بعد المرة السادسة عدد الرفوف الملصقة في باب الثلاجة، ومساحة بطنها الفارغة بسبب الثلث الأخير من الشهر، وليس سوى علبة دواء باردة كانت في الرف الأعلى امتدت يده إليها، ليقرأ ما هو مكتوب على جسدها، وإنها دواء "التوسيرام" شراب معالج للسعال، فتذكر على الفور مذاقه والذي كان قد شبهه وقت إصابته بوعكة وكأنه شاي قد أخذت النار سِحره وأبقت على مرارته مهما زاد فيه السُكّر، فامتزجت فيه الحلاوة بالمرارة. ملأ غطاء زجاجة الدواء ذلك ليأخذ جرعتين، فأغلق بعدها الثلاجة وكله قناعة بأن ما شربه مجرد مذاق سيعوض عن الشاي، وما هو إلا ظلام ليلة سينتهي فتفتح المحال أبوابها ولا يكرر ما مرَّ فيه، لكن، وبعدما اتجه نحو سريره قاطعت مسيرته طرقة باب لم يكن يتوقعها، ولا حتى زوجته، فتساءلا من يكون الطارق والشوارع لا يسير فيها الآن غير مجاميع موت، أو شرطة تبحث عن مطلوبين. اقترحت عليه

زوجته بأن لا يستجيبا لمن يطرق، وسيتظاهران بأنهما لم يسمعا شيئاً مهما تكاثرت عدد الطرقات أو زاد صوتها، لكن أسوأ الاحتمالات جالت برأسه تفكراً، ومسألة اقتحام الدار أمر لن يكون هو السبب فيه.

مَن الطارق؟

سأل من داخل داره وعلى مبعدة من الباب خشية أن تخترق الرصاصات الحديد وتصيبه، فكانت الإجابة مبتدئة باسمه وأنهم يريدون منه ردّاً لمسألة منهم، لكنه حاذَرَ أكثر من صوت محرك السيارة الذي لم يسكت، وتمنى لو كان يتكلم كما البشر ليخبره بما يصبون إليه. فكان اشتداد الحيرة إن سلّمَ أمره وفتح لهم باب الدار مع استعداده لمواجهة عضلية معهم لا غير، أو في الأقل إبعاد فكرهم من اقتحام الدار فيما لو لم يستجب، وانتشار الأذى على زوجته وطفله.

-أهلا بكم.

قال لهم، لأنهم كانوا ثلاثة، اثنان واقفان وآخر يجلس خلف المِقوَد، وبعد سؤالهم عن صاحب أحد المنزلين الفارغين بجوار داره، أشاح بنظره نحو المنزل المقصود ليجيبهما، لكن الإجابة لم تكن مكتملة، فصوت أربع طلقات ملأ صداها المكان، وكلّ شوارع الحي، وكلّ من سمعها ترحَّمَ على من استقرت بجسده، وهناك من لعن مطلقها كأنه يقول تمائم مع نفسه. أما هو؛ فكل ما رآه وقتها كان مجرد نهاية لحياته كما نهايات الكثيرين قبله ومن سيكون بعده، فاستدارة سيارتهم وتركهم إياه بدمه، وركض زوجته

نحوه ورمي جسدها بين الظلام وهي تطلق عويل الموت القادم إليه، وتدلي أوراق شجرة الخروع بقربه، كل ذلك كان يَرى ويُرى، أما ما كان يشعر فيه، فلم يكن له جواب حتى منه، فقدح الشاي الذي لم يحتسيه بتلك الليلة، أفقده الحس بما كان في فمه من مذاق، واختلطت عليه مرارات كثيرة من عشاءٍ ودواءٍ، وموت.

****

الوهم والحقيقة

ما من مبعوث أو مولود إلا وكان ردة فعل أو نقيض لما سبقه، وإنزال الدين إنما هو ردة فعل لما سبقه من حياة رذيلة، والنبي لا يتجسد اختياره إلا لبلوغه مرحلة الإيمان التام، فقد كان بالإمكان اختيار نبي من عليّة أي قوم، لكن الإيمان يسبق كل أولوية وصدارة ومكانة...

استمع له كما المستمعين لما يقول وعما يجول ويرى، منذ سنين تآكلت الأحداث في ذاكرته وأمست رؤى يفزع منها في يقظته ومنامه. وما زال مستمراً بحديث فلسفة الدين بإصرار قناعة في عدم وجود تفلسف في الدين، وإنّ الشرائع والأحكام الإلهية قد انصبت في الحياة متخذة أسلوباً ما أوعز الإنسان فيها لنظرية الحكمة، لأنه عجز عن تنظيم تلك الحياة، وبقي من تلك الأشياء ما يتعلق بمقدار الحياة ومقدار الحكمة فيها... كان يكرر دوماً بأنّ للإنسان عمق متصل بعمق التاريخ، لكنه تجاهل ذلك لمسألة أنه سيموت بيومٍ ما، وتلك هي النهاية التي أدت بالقطيعة بينه وبين غور التاريخ. تأبط كتابه فرحل منا، فنراه منحني الظهر أشيب الشعر مستغرقاً بأمر في مشيته، ولا هَدَأ له بالٌ للحظة أبداً، ولعلّ ذلك كان سر شقائه مع نفسه، وفي الأثناء، خلال تفكره بمسألة الخير والشر، ضرب بكتفه دون

قصد كتف شاب، فالتفت إليه معتذراً، لكن نظرة الشاب المنزعجة دفعت به بعدم قبول الاعتذار وتحت عبارة: أأنت أعمى؟.

انبهر لما سمع من ذلك الشاب فرد إليه رغم استغرابه: ألم تقبل الاعتذار أيها الولد؟!

ليرفع الآخر يده كعلامة استهزاءٍ ومقلداً صوت الرجل الأبح: اعتذار... أيها الولد...

لتتركز بتلك اللحظات استنتاجات فكرة حاول محوها فوراً من رأسه وما استطاع، حاور من أجلها نفسه لكن دون جدوى، الشر قد سبق الخير وجوداً، فلولاه لم تكن للخير قضية، ولا دعاة لها، ولو كان الخير قد سبق، فما كان للشر وجود أبداً...

مع آذان ساعته لمحاضرة له بكلية الآداب، توجه حيث مكان الطلاب فدخل عليهم بتعابير حزن صامت، ووضع يديه على الطاولة بعدما جلس دون أن يتكئ ظهره على مسند الكرسي، ثم نظر بتجهم من خلال النافذة إلى السماء لما تحمل من غمام ركامي، فأراد أن يفتح ملف الخير والشر معهم، ومناقشتها، ثم سأل عن مؤيد أو معارض لذلك. فساد صمت طويل في المكان ليكسر طوقه بكلمة واحدة كان عنوان درس تلك المحاضرة، الغزالي. وكما المطر في الخارج كان هو يزخّ عمن هاجمهم ذلك الفيلسوف من دهريين وطبيعيين، فشدَّ بنهاية المحاضرة نظره ترهل أوراق الشجر من شدة المطر، فأوجس في نفسه إن مسألة الله ليست غاية معرفة لدى

الإنسان، كونها أرقى من أن يتعلمها مخلوق، ولأنها الأرقى بقيت غامضة عن مرأى العين ولمس اليد، فكان على الإنسان أن يرفع يديه دعاءً لله...

جمع حاجياته من الطاولة ليهم الذهاب إلى أمر تشتت آخر، فشعر أثناء الليل أن وقع المطر المستمر منذ الصباح هو نداء له من مكانٍ ما، أو زمانٍ ما. لينهض من فراشة صوب المصباح ليوقده، ثم سمع صوت باب مكتبته المألوف يُفتح، وأن الضوء بدأ ينبعث من هناك، ورغم الخوف الذي تمالكه، لكنه توجه إلى غرفة المكتبة، وما إن دخل حتى وجدهم ثلاثة، اثنان جالسان، وآخر يبحث بين رفوف الكتب، فناداه أحد الجالسين ملتمساً منه إشعال النار، كان ضعيف الجسد يرتدي معطفاً أسودَ ثقيلاً، فلمح من ابتسامته وجمود عينيه شخصاً عليلاً لم يعرف ما علته. أوقد لهم النار ثم نودي مرة أخرى للجلوس. وذو المعطف لم تغادر وجهه الابتسامة، فتكلم معه ليعرّفه من هم ضيوفه هذه الليلة الباردة المبللة والذين أتوه للدفء والسمر، ثم وضع يده على صدر ضيفه قائلاً له: أنا كانت، وهذا صديقك الذي كنت تتحدث عنه هذا الصباح، الغزالي. فقام لمصافحته وشعر بدفء يده مع أنه كان يرتعش مذهولاً لما يراه من ضيوف. وما أن نظر إلى ذلك الواقف أمام الكتب حتى سمع صوت الغزالي وهو يقول: وحسبي أن أذكّرك، العلماء ورثة الأنبياء. وكما أنّ لعقلك قلب، فلقلبك عقل، وإن بينهما حدود فلا يبغيان، لأن الله يُرى بالبصيرة لا بالبصر...

كان يغرق بحديث الغزالي الذي قاطعته دقات الساعة، ليستأذنا منه للرحيل، فاقترب منه كان ممسكاً بيديه ومطرقاً: إن الإنسان دوماً بحاجة للتنوير. ثم دنا منه من قضى وقته قرب رفوف الكتب ليهمس بأذنه: تنوير يدخلكم وصاية من صنعكم. فرحل منه الجميع لتخلو الغرفة إلا منه، يقف بمبعدة عن موقد النار، لكنه كان يتصور في تلك الأثناء كيف يخرج الدخان عبر المدخنة، يتخيله مع الغيوم والمطر، دخان يطير ويجهل مسيرته، ثم يتلاشى مجهولاً.. وتلك الليلة البعيدة عن الذاكرة جديدة الأثر، تساءل في نفسه عنها وهو يجتاز برك مياه الأمطار أثناء سيره إلى الجامعة، إلى أي مدى يصل الإنسان بتفكُرِه؟ فلم يُعِر اهتماماً، تلطخ معطفه بالوحل وقت مرت حافلة منه، فرأى المجد مسألة مضت عليها عصور، وأنه كصورة ممزقة يجب ترتيبها، وما إن تكتمل حتى يُرى أنها لشخص غريب غير معروف. وهكذا أوصلته مركبة أفكاره حيث طاولته، ليقابل من جديد نفس الوجوه، فبادره شعور بأنهم ملّوا شكله ليطلب منهم أن يسألوه طيلة أمد ساعة المحاضرة، يسألوه عن أي شيء. فما كان يصله سوى همس كثر فيه حرف السين، ثم أتاه السؤال من عند المقاعد الخلفية: كيف كانت طفولتك؟.. وهو سؤال خارج توقعه مطلقاً، وتصور أن تكون الأسئلة لا تتجاوز حدود مناهجه الأكاديمية. فنظر إلى الأرض رغم إغماض عينيه، ووجد من طفولته كما ظلام اللحظة، وأنّ عمره مجهولة فيها بدايته، فعبر عن جوابه بصوتٍ محزون: لعلّك تجدها بين طيات

التجاعيد، هذي تجاعيد وجهي. كان صريحاً برده، إذا لم يكن هنالك سبيلاً آخر سوى اختصار سنين من آلامٍ بريئة ببضع كلمات، فكلّ ما يمر الطفل من ألمٍ هو تأسيس لمواجع كبره. أما السؤال الآخر، والذي كان ينتظر أن يطلقه أي أحد عليه في العالم كله فقد كان عن الحرية، فأجاب بجملة واحدة دون انقطاع: لو كنت أمتلك الحرية لكنت أول من انتحر... لينصرف بعدها كهاربٍ كما كلّ مرة يحزن فيها أو ينفعل، فلم تغادره تلك اللحظات، اللحظات التي استدعيت فيها طفولته، لكنها رغم أي أمر، أفضل من بعثرته هذه، وبحثه عن الوجود في الوجود. سحب بعد دخوله غرفة كتبه كتاباً لم يتصفحه منذ سنين، فبدأ بالقراءة حتى وصل الليل أعماقه لتقاطعُه أحشاؤه ببردٍ أرجفها، ثم قام لتحضير بعضٍ من الشاي، رأى حين دخوله المطبخ الأواني والكؤوس والملاعق الكبيرة والصغيرة، فتراءى له أنّ تلك الأشياء لها مشاكلها أيضاً، لكنها التزمت الصمت لحكمةٍ ما. وفي زمن انتظاره غلى الماء أطلق أنظاره من خلال زجاج النافذة إلى الظلام، فقرر الخروج ليستشعر شيئاً من الليل والسكون، فترددت في ذهنه أغنية حزينة، دندن معها، وشيئاً فشيئاً بدأ يغنيها لتأخذه تأملاته حيث ذاكرة وشباب، عملت من حياته سلسلة طويلة من جبالٍ ووديان، فما هَدَأ له بالٌ بأيام يأخذه فيها القلق والحيرة والحزن، وأخرى يعود مستقراً وهانئ البال. فما وجد نفسه إنساناً كأولئك الذين يمشون على الأرض، وتأتيه نوبات أخرى يجد أنّه من النوع الإنساني الحامل لروح العصر..

أحسّ بصدره يثلج فانصرف داخلاً ليرتشف الشاي، وقرر مواصلة قراءة الكتاب رغم ما أصابه من تعبٍ مفاجئٍ ما تذكر بيوم صادف مثله. اتجه صوب الفراش وبيده ذلك الكتاب، ليُفاجَأ مرة أخرى حينما وجد قصاصة ورق بين طياته، فيها أسطر من خط يده، فتذكر أنّ ما مضى على كتابتها ما يزيد على السبعة عشر عاماً فصارت من طي النسيان، حاول قراءتها، لكن السعال أعاقه كثيراً، فهدأ، ثم أحسَّ بأنّ صدى ما كتبه من كلمات في تلك القصاصة يتردد بغورٍ عميقٍ في داخله، وبصوتٍ متعبٍ بدأ يقرأ: أكذوبة عمرها سنوات، ترجمها عقلي بجنونه، إذ أرى مداً من الذكريات تكاد موجته كلّ صخرة أبت أن تقتلع، كما أبيتُ أنا برفض هذا الواقع وأرض بهذا الغرق، وها أنا، أناقض مُرَّ واقعي بحلاوة أكاذيب نهايتها التلاشي والضياع، فكان رفضي أمراً لا بد منه وإن علمت أن الموت واحد، لكن الموت ببسمة هو أقل سخرية على كلّ وهم، وعلى كلّ واقع، وخير من غمٍّ مرسوم على الجباه وانتكاسة النفس وهزيمتها أمام كلّ وهم، وأمام كلّ واقع. أعلم أنني لطالما عشقت لذة الحلم وروعة مذاقه، وما أتاني إلا فزع تتآكل الروح منه، فسلكت هذا الدرب اللا رجعة فيه، وإن حاولت الرجوع ستكون هناك حتماً هاوية...

استيقظ عند الصباح ليجد إرهاقه قد تفشى بجسده، لكنه صمم كعادته للذهاب، فارتدى المعطف ببطءٍ وسار بخطى جنائزية، ووصل القاعة التي لم يجد فيها سوى طالبة وزميل لها، أشار وجهاهما نحوه أنهما كانا يتبادلان

الحبّ همساً، فتبسم ملقياً عليهما تحية الصباح، واعتذر مستأذناً الخروج. كان يمشي في الممر الفارغ ممتزجاً سعاله بصدى خطى قدميه، وفي باله فكرة ضاحكة، أو كالشيء الذي أسعده، أسعده جداً؛ فتذكر أنه ابتسم لهما بكل صدق وعفوية، وبكل هذه البساطة قد وجد بينه وبينهما شيئاً من الحقيقة.

****

يوم المرحاض العالمي

ليس خافياً على أحد، وأهميته كبرى كما قمم ومؤتمرات هذا العالم المجنون، والذي اكتشف أنّه لابد له من يوم يصار فيه الحق لكل إنسان في كوكبنا أن يكون له مرحاضاً، وليس بالضرورة أن يكون رصيداً في مصرف.

....

استقبلته كأي جندي جديد، ولي غايتي بأبعاد شعور الغربة الذي يمر كما أتيت أنا أول مرة إلى هنا، كان لامعاً وفق مقاسات المجتمع آنذاك، من بغداد، بل من المنصور وقد أكمل للتو دراسته في كلية الفنون الجميلة. غير أنّ تلك الهالة لا ينفع بريقها مهما كثُر حوله في عالم من الحرس الجمهوري، وارتدائه البذلة العسكرية، كان الجو بارداً وسماؤه غائمة، أما هو فكان صامتاً وبدت عليه سيماء راحة بعد ضيافتي له، وكان كمن يحاول اكتشاف المكان الجديد هذا. مضى وقت ليسألني عن مكان المرحاض. هو لا يدري أنّ للوحدة العسكرية مرحاض لولا المساءلة القانونية حينها، كنت قد كتبت على بابه: لا تدخل مهما كان وضعك صعباً، فالأمر يحتاج مساعدة دجلة والفرات كي يزيلا ترسبات أعوام كثيرة، وأكثر الجنود كانوا يذهبون ما بين القصب البعيد كي يحتفل كلٌّ مع نفسه بمرحاض، وليس

بقصد اكتشاف عالم البعوض وسلالاتها، أو التعرف على جنسيات الحشرات التي لم يلتقوها من قبل، أما في الليل، فقد كان لقفا الوحدة العسكرية فراغ مداه حيث الأفق، ليكون الظلام مرحاضاً يتسع لكل البلاد. وحتماً إن سؤاله لم يكن من ضمن الاكتشافات، بل لأمر يدفعه أن يسأل، وأنا عليَّ أن أجيب، قلت له أنه خلف المبنى الذي يحتوينا، ليتجه بعد سماعي إلى النافذة ويطلق أنظاره في البحث عن المرحاض، لكنه غيّر مسار عينيه نحوي ليخبرني بأنه لم يجده، لأطلق يديَّ كمغنٍّ أوبرالي أمام ذاك الجديد قائلاً له: كل ذاك الحجم ولا تراه! أين خيالك يا خرّيج الفنون الجميلة؟. فكنت أسمع ما يقول وهو يضرب بيديه رأسه: متى يأتي الليل؟.

****

وهن الجدران

(1)

يحاولن دائماً تجريحي بقولهن إنني جميلة، ويثرن كلّ دفين من تلك الأحزان وبقايا الرماد التي تناثرت على كل حاضري ولاحقي، أحسب في داخلي بعض الأحيان تلك محاولة منهن لإهانتي بطريقةٍ ما، وما إن أنظر بعد ذلك إلى المرآة حتى أفزع وأضع يداي على تلك المساحة الشاسعة من وجهي، أحسه أرضاً لا متناهية الأطراف، قَفْراً. ثم تبدأ الدموع تتغلغل بين أناملي، وكالعادة في ذلك. وبرغم ذلك ما زلت أحس بعطشه، وأشعر بمن يسقيه بنظرة ليست مثل نظرات صديقاتي. فما أفعل؟ أأرمي ذلك الجزء مني؟ أم تراني أبدد ربيع شبابي بخريف القدر الذي أفقدني العطر الذي أحب من حياتي حتى بتُّ أحسد كلَّ وجهٍ أراه. وكلّ ما أمر فيه ما هو إلا أسى يمتزج مع الأيام وأنا الغريقة.. ما زلت غريقة، بعدما أفقدَتِ النيرانُ حسي في نظر الخلق، ولست أدري على من أطلق أناتي، على تلك النار، أم على من أعيش بينهم؟ فمنذ ذلك اليوم والعالم قد تغيّر وصار كلون عينيّ السوداوين – ذلك اليوم – تكرر مئات المرات في أعماقي، وكأني رسوت بخريف لا نهاية له إلا بنهاية أيامي، وما نقصي إلا وقوعي كضحية نار حينما كنت في الخامسة عشر من قطار العمر الذي أوده لو يركن أو يتحطم في أي وادٍ سحيق.

قساوة نار أخذت يسار وجهي الجميل كما يقلن لي، ومنذ ذلك الوقت والوجود ليس كما هو الذي كنت أراه، أو هو الذي كان يراني، صريعة بين نفسي وما يحيطني، وسيان صار عندي الأمس واليوم: رتابة بلا معنى. وهذه الواحدة ليلاً، الصمت يلف كل ما يحيط بي، أود النوم، إلا أن هنالك من يتخلل النافذة كلّ الحواجز قاطعاً رغم مطر الليلة، وعلى سحابة كلّ مسافات البعد بين شكلي وحسي حينما رمقني بنظرة هي الأولى، والمختلفة، والجديدة.. شعرت بأنها لا تشبه من في عيون الآخرين، وذلك قبل أيام لا تزيد عن الثلاثة، نظرة جعلتني إناءً يفيض همّاً مما أنا فيه، وكرهت بسببها مأساةً تلاحقني كل يوم. ولا أدري أسيستمر بصمته الشائع والحديث عبر عينيه، أم يخال لي إن لنظرته اختلاف؟ فربما هو العطف ما حمله إليّ وأسفٌ على تلك الأمواج الطاغية بمدٍّ فوق وجهي، لكن مرة واحدة للعطف تكفي، وها أنا أنتظر الصباح كي أراه وأحاول فك ذلك السر الذي تطلقه شِفرات عينيه، فما زلت لا أعرف عنه سوى أنّه قادم من بعيد، ويسكن في دار للطلبة...

....

(2)

تبتسمُ لي التعاسة بابتسامة سقيمة كعادتها، صباحاً حينما أنظر إلى المرآة لتصفيف شعري ليس إلا، إثر السنة الشاردة من حياتي، وبصدق، أعترف

أني أنتظره يمر، فثلاثة أيام سبقت أنبأتني بقدومه المتأخر للمحاضرة، إلا أنني أتيت قبل قدومه بنصف ساعة. تمضي الدقائق وأنا المنتظرة، والناظرة لنفسي كيف هي رهينة زمن ما عهدته عرفني، والناظرة إلى عيون لم أُطِق الوقوع عليها من فرط ما تحسسني بالتساؤلات عمّا أحمله. ثم أتى من بعيد قاطعاً مسافات سرمدية بلا منتهى، يقترب وتتضح سمرة وجهه وهي تفصح لرجولة لا تبالي بعاطفة نحوه، فتأخذني الرهبة منه بنظرة كما السالفات، جديدة مختلفة رائعة، ثم تذهب تدريجاً كبطءِ خطواته الآسرة وهو يتلاشى بين الأجساد. فمضى الصباح بمضيه، وثمة قرار بأن ارتحل نحوه علّ إحساس مني يصل إليه، وليته يفهم بأنّ اقترابي إليه ما هو إلا امتنانٌ لعينيه. كان هذا اليوم فاتحاً لعهد جديد بالنسبة لي، ورأيت روحي كشجرة لم ينتهِ فصلها وما زالت تنعم بالربيع، فبجرأة لم أنتبه لها إلا بعد انتهاء النهار، غرزت عيني فيه، وثمة لوم لنفسي بعد مراجعة لأوراق يومي، فربما هي المرة الأولى في حياتي، غير أنّ صديقاتي يتحدثنَ بلا وجلٍ عن مغامراتهن منذ وقتٍ وكأنها بطولات حياتهن، سأهمل في مراجعتي في الوراق يومي تلك الملاحظات، وصولاً لأي اكتشاف.

....

(3)

صباحٌ جديدٌ، والغيوم تطاول بدكنتها زرقة السماء، البرد يقتحم جسدي مكابداً أحزان تناسيتها منذ أيام قليلة، أنتظره... أنتظره وأنا واقفة تحت شجرة ما تزال أوراق منها متناثرة تحتها، رطبة صفراء، ولا أدري ما جعلني ألتقط ورقة منها وأضعها بين صفحات دفتري. ربما لبرودة الزمن بداخلي والذكرى الشتوية حملاني لذلك، وهناك تقع كلّ لحظة عيناي نحو مدخل الطلاب حيث هو سيأتي منها، لكن القدر أخفى عني وجهةٍ أخرى التفتُّ إليها ولعينيه مباشرة.

صباح الخير. قالها، ولا أعلم إن كنت قد أجبته، فالبسمة الشفافة وهي تطلق تلك التحية تركتني ورقة رطبة صفراء، تأخذها الرياح الباردة، بين كومة أوراق الشجرة التي تسمرت تحتها.

فقررت أن أبدأ المناورة من الآن، وأضغط بأصبعي نبضه رغم عدم معرفتي من أين البداية، توجهت إليه بعد ساعة لإعلان ساعة الصفر ولا أذكر كيف كان صوتي حينما سألته عن الوقت الآن، لكنني كنت الحظ نفس الابتسامة وهو يجيبني:

أتعاني ساعتكِ من خلل؟

الحرج يلتهمني، وأنا على يقين بأنّ وجهي كان يعطي كل لحظة لوناً جديداً وددت التأكد لا أكثر..

أعرف أنّه جواب غبي، وما لي سوى أن تسعفني أي كلمات، أي كلماتٍ تسد ثغور ضعفي وانكساري وقتها.

أولديكِ موعد هام لتتأكدين من ساعتين؟

ولن أتأكد من كلّ ساعات الكون.

لِمَ التشاؤم؟

أوليس ما تراه فيه ما يثير التشاؤم؟

على العكس، عيناك تنبضان بالحياة..

ما كان يقصد حينما رأى الحياة بعيني؟! أهي شتيمة وكما صديقاتي، أم هو عزاء يغطي فيه حروق وجهي؟؟ استغرقت بالصمت وأنا أقف أمامه، يكلمني دون أن أسمعه، يبتسم، ثم أرى شفتيه تتحركان دون أن أدري ما يقول، لأستفيق على وقع كلمة آنسة وتلاها سكوت يشير لمعرفته باسمي.

بيداء، واسم على مسمى.

انزعي من كلامك هذا الابتئاس، فلن يتحقق لك ما تبتغين واليأس رفيقك، اسمي عامر، لكنني إلى الآن لستُ بعامرٍ بشكلٍ كاملٍ، فهناك الكثير أمامي كي أنجزه، قاطعته الكلام ثم استأذنتُ منه للمغادرة، فأمامي أنا أيضاً الكثير لأنجزه، فسألني في فرصة أسعد، ولم أرفض.

....

(4)

عدت لوحدتي، والبلاء الذي أسقطني صريعة اثنين: الرماد المتناثر فوق مساحات وجهي، والحبّ المتفشي في أزمنتي وكلّ دروبي، أمنيتي هي أن تركض الأيام فتأتي أيام جديدة يراني فيها بوضوح أكثر. رأيته وحيداً يجلس قرب طاولة لارتشاف الشاي، أدري أنّ يديه الآن دافئتان رغم المكان البارد، والجو البارد، وكل ما يحيطني بارد، ولأنها الكلمات قد أخذت تفيض من برحائي، اقتربت منه لأكون له كمفاجأة سارة وكما قال، ثم دعاني كشريكة لهذه الجلسة الجميلة.

_كيف الحال؟ سألني.

_خالية ورتيبة..

_أَبعدي عنها السكون، وحركيها بفتحةٍ أو حتى كسرة.

أضحكني حقاً، فأخبرته بوجوب ذلك وأنّ جديداً يلوّحُ في الأفق.

_أحثّكِ على ذلك، فالمرء بفطرته يميل نحو المجتمع، ولا يعيقكِ ما تفكرين فيه.

_سأفعل إن لم تصادفني نكبات أخرى.

_بيداء، أتعرفين... إني أكلمك وكأني أعرفك منذ زمن طويل؟

آه يا عامر لو تدري ما بداخلي نحوك، أيكفي الصراخ في وجهك كي تعلم منذ متى أعرفك، وليتك تسمع ما أقول الآن، وليتك تفهم ما يصرّح فيه تبسمي.

_ذاك من حسن ظنك يا عامر، ومن حسن حظي أيضاً.

_لا، ففي الحقيقة إني أجد بعض الود نحوك، ولا أقصد بذلك الإساءة مطلقاً. ولمَ هذه البعض؟ فإني أحمل من الود كله ولسوف تدري، لكنها تكفيني رغم بعضها، وتكفي أن أعيش كل حياتي فيها معك.

كانت دواخلي تكلمه، أما أنا فكنت أطاول اللحظات كي لا ترحل، فينتهي زمن هذا اللقاء.

_ألا ترى أن طريقة حديثكَ رسمية لحدٍّ ما.

قلت له ورفعت من درجة جرأتي أكثر مما سبق:

_ارفع عنك تكلفكَ ما دمتَ تحس بما أحس.

_أترينا بدأنا مشورانا؟!

_قبل أن نلتقي.

_بيداء، رغم تسارع الزمن في تعارفنا، وقصر لقائنا، إلا أنني أجدك كخيالٍ يسحبني إليك.

_خيال يسحبك! امحُ ذلك الخيال وضع صورتي بعينيك، بقلبك، فالمهم أن أكون حقيقة لن تندم عليها يوماً.

_هل أكلمك بوضوح أكثر، أم في وقتٍ لاحق؟

_لا مانع.

_ليس من السهل أن أعبر مرة واحدة مسافة أجدها تحتاج لوقت.

_أنا أعرفك منذ عصور، فما هذا الموت البطيء؟

أتوسله بصمتي أن يتكلم ويشتت ذلك الضباب الذي لم يعد مجدياً تحت شمس واقعي.

_صدقني يا عامر، لا حدود ولا مسافات شاسعة بيننا، وإن كنت ترى ذلك فلك مني تأشيرة دخول.

_أمستعدة للاستماع؟

_ترددك يجعلني غير ذلك ولكل شيء.

_لو أنني طاولت أشياءً لم أرَها قط، وقلتُ لكِ بأنني مسافر بكِ ليالٍ كثيرة نحو حلم غايته التحقق والخلاص، فما رأيك بهذا الترحال؟

_لن أقول لك لنسافر الآن، لكنني أطمح بأن تكون رحلتنا نهايتها سعادتنا معاً، ولا أكثر من ذلك يا عامر...

....

(5)

الواحدة ليلاً، وهذي الساعة تعني لي الكثير، ففيها دونت ما كنت أعاني على جدران أزمنتي، عندما كنت أرى ذلك الشخص يقطع المسافات على سحابة، الآن وبعد مضي الشهور، صرت لا أخاف وجهي حينما أشاهده، لأني جميلة كما قال، وجدت حياتي بكلّ تفاصيلها ضرورية، ولم أعد أنتظر شيئاً كوني في سفرٍ مستمرٍ وبلا انتظار محطة، ولا فصل تذبل فيه

الشفاه، رحل الخريف الذي اعتراني وقتاً ثقيلاً طويلاً. ونظرت إلى الحياة كحبٍّ يغمرني، وأنّ عمراً واحداً يكفي أن نعيشه بهدوءٍ وهناءٍ، وآمنتُ بأنّ الجدران التي تحول بين أمرين، لا بد من زمنٍ سيأتي، فتصاب بالوهن.

****

شارع المُخبرين

لولا توهج سيجارته وهو يسحب دخانها، ما استطعت رؤية شيء من وجهه، وبرغم التراب الذي كان يتكلم عن عدد سنينه الكثيرة فوق زجاج تلك النافذة، كانت تقاسيم ذلك الوجه كصفيحةٍ سَارَ عليها قطار، ثم أمطرت الدنيا عليها لعشرة شتاءات؛ ليأكل الصدأ منها ما قدر، ومن أمام الدار، وتحت النافذة التي كان يشاهدنا منها، ابتدأت مشيتنا أنا وصديق لي لمسافاتٍ تضمنت أحاديثَ كثيرة، أوصلتنا في النهاية إلى منزله الواقع نهاية الشارع نفسه، إلا أنّ المخطط تغيّر في أنْ نودعَ بعضنا بعدما سألته إن كان يعرف ذلك الشخص ذو الوجه المضاء بسيجارة، قال: تلك الدار خالية من سكانها منذ أكثر من عشرين عاماً، بعدما قررت السلطات مصادرتها بوشاية مخبرٍ، بذريعة عمالتهم لنظام الحكم الذي سبق، فقد كان صاحب المنزل مخبراً لجهاز الأمن، وكانت مهمته هي متابعة بعض الساكنين بذلك الشارع، فاختفى من السكان رجلان أُتهما بالتجمع غير المصرّح به، وأنّهما يخططان لتشكيل حزبٍ معادٍ، وبعدما تعرف أحدهما على من وشى بهما _من خلال الكشف والتعرف_ أوصل تلك المعلومة إلى عائلته، والتي وشت به بعدما أطيح بنظام الحكم، وإنها فُقدت إثر ابنها وأحد أبناء الشارع بعد ذلك، ولم تعرف للوصول إليهما من سبيل، وبعد أن صادرت

الدولة المنزل واقتياد صاحبه للمحاكمة، اختفت عائلته وكأنّ شيئاً ابتلعها؛ فُعرض البيت للبيع بمزادٍ كان كفرصةٍ ضائعةٍ من يدِ أحد سكنة الشارع، بعدما أخذه أحد المقربين من الحزب الحاكم، فاستأجره لأناس كان تدينهم المعلن ورقة سريعة للأمن، كتبها سراً مَن فقد فرصة اغتنام الدار في المزاد. كان الاعتراف المسرب عن المتهمين يشير إلى تواطؤ المقرب من الحزب وتعاطفه لأفكارهم، مما أثار حنق المسؤولين ليُقصى بقرار رئاسي من كلّ مهام المسؤولية، واضطر لبيع الدار سداداً لديونه لمن كان في نفسه شراؤه أول مرة، ولأن سمعة زوجة الشاري الجديد كانت تجذب قيادات السلطة في ليالٍ حمراء، تشاكى أهل الشارع لبعضهم والنقاش في حلٍ يبعد هذه المصيبة الجديدة في طرازها، لكنهم مذ دخلوا مبنى مركز الشرطة في طلب إيجاد تدخل بعدما فاحت رائحة العائلة وملأت الدروب، لم يخرجوا منها إلا فراداً وبعدما نال كلٌّ نصيبه في الحجز، ففي ذلك اليوم وجد الرجل وزوجته وابنتيه قد نُحروا، فجال في ذهن كلّ الناس افتراض انتقام المسؤول السابق، أو العائلة المتدينة، أو تاريخ المنزل والتقارير والضحايا. لكن كل الافتراضات لم تؤدِ إلى نهاية القضية، فتُركت الدار منذ ذلك الوقت فارغة لم تطأها قدم ولحين ما رأيته عبر نافذة غرفة الطابق العلوي، فعدنا إليه بعد اقتراح مشترك بيننا في ذلك، يأخذنا التطلع والترقب في اقتناص أي شيء يؤكد استمرار وجود ذلك الشخص، فداهمَنا الفضول للولوج في عمق الدار واكتشاف ما يمكن اكتشافه من آثار أزمنةٍ مضت، لكن صوت

زناد البندقية وتوجيه فوهتها لرأسي قد أوقف الزمن بأسئلة من صوتٍ آتٍ من خلفي: أأنتما من سكنة هذا الشارع؟ وحين علم كان غضبه يأتي عبر لمس فوهة بندقيته برأسينا، مع كثير من الرغبة في القضاء علينا كورثة لوشاة، بل نحن وكما قال مخبرون أيضاً لا نختلف عن البقية، ولا نعرف العيش إلا بإتعاس الآخرين، ولا نفهم الولاء للبلد إلا بالولاء للسلطة. لم أكُ أرغب أن ينتهي هكذا نوع من الأحاديث بصوت الرصاص كما هو معتاد في بلداننا، لكن الأوان قد فات، بعدما تم تطويق المنزل بإخبارية عن وجود مجرمين في المنزل، مما أضاع علينا فرصة التوضيح لذلك الغريب، وما هي إلا رصاصة تخترق رأسه بعدما رفض التفاوض والاستسلام، وإننا كما صرحت به قوات الأمن: جماعة كانت ترتب لعملٍ إجرامي كبير. ولحين انتهاء التحقيقات.

****

محتويات الكتاب

ورودُ حبيبتي	5
ثلاثة شتاءات	11
كيف يعيش الضائعون	16
الرحيل نحو أماكن أفضل	18
الله يحفظ راعي البيت	20
لوحة المفاتيح	23
لا أحد يقرأ	25
لحية خرّيج	35
المرة الأخيرة	37
مقهى الضياع	40
المقاتل	42
بين ضباب التغيير	52
قصة الدب الكبير	54

الدنيا بالألوان	62
الزبون	64
الأنثى المسخ	66
دولاب الزمن	68
البرنامج	72
توسيرام	77
الوهم والحقيقة	81
يوم المرحاض العالمي	88
وهن الجدران	90
شارع المُخبِرين	99
محتويات الكتاب	102

تمت بحمد الله

ثلاثة شتاءات

مجموعة قصصية

حيدر علي الجبوري

الطبعة الأولى

1442 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com